الإهداء إلى حزب الله العاملين لإعلاء كلمة الله
......في كل مكان من ارض الله .

الإنــــذار
بأن نقض أصل التوحيد بالجهل ليس من الأعــــذار

تأليـــف

احمد طارق

الطبعة الثانية – بـورد باكستان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة :

الحمـــد لله المنفـــرد بـــالجلال والكمال, والصلاة والسلام على نبيه محمد الذي قمع به أهل الشبه والضلال, وبعثه رحمة للعالمين محذرا لهم من سوء العقبى ومرشدا لهم إلى حسن المآل نحمده سبحانه القائل في كتابه المبين:

{وَإِذْ أَخَــذَ رَبُّــكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ{172} أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ{173} – الأعراف .

{وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } الأعراف174 .

فأعطوا بذلك العهد والميثاق لرب العالمين :في أتم بيان وتفصيل ,على أن يعبدوه ولا يشركوا به شــيئا ,وينـــزهـــــوه عــن الشبيه والقرين ,فجاءتهم ذرية إبليس اللعين فاجتالتهم عن دينهم إلا بقية ممن رحم الله من عباده المؤمنين الذين تمسكوا بحبله وكانوا له موحدين, جعلنا الله وإياكم منهم آمـــين.

الباب الأول : نقض التوحيد قبل الرسالة وبعدها

الثابت المتقرّر في دين الله تعالى أن الناس فيه قسمان من حيث العموم والإجمال, مؤمن وكافر, وثمّ ديـــنان لا ثالـــث لهما, من خرج من أحدهما وقع في الآخر يقينا ,وعكس ذلك صحيح,دين الإسلام ودين الكفر.

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ } التغابن2 .

{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران85 .

فالإســـلام هــو توحــيد لله عــز و جــل وعبادته وحده كما تقرر ذلك في أصول الكتاب والسنة المستفيــضة بمـــا يغني عن إعادة البيان, ودين الكفر هو الشرك بالله تعالى ونقض توحيده بأي صورة من الصور كانت, فمن دان بتوحيد الله عز جل علمنا يقينا كونه من المسلمين,ومن نقض هــذا التوحيد وتلبس بالشرك علمنا يقينا أنه ليس مسلما بلى هو على نقض دين الإسلام أي أنه علـــى ديـــن الكفر, كافر مشرك بالله العظيم .هذا برهان ضروري أولي لا ينكره إلا مكابر معاند, فليس بمسلم إلا من وحد الله تعالى ,وكل من ليس بمسلم فهو كافر ضرورة يستوي في ذلك العالم المعانـــد والجاهل الضال والمقلد المتبع ومن هو قبل الرسول ومن هو بعده , ومن بلغته الدعوة ومن لم تبلغه , من حيث الحكم العام الذي يجري في ظاهر الحال , وبه نميز الناس أمام هذا الدين (الإســــــلام) أما كونه معذبا يوم القيامة بكفره هذا, أو معفوّا عنه لجهله , فهذا أمر آخر وقضية أخرى لها كلام أخر يأتي بإذن الله .

البرهان الأول:

قال تعالى : {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ } التوبة6 .

فصح تسميته مشركا وجعله من المشركين مع أنه لم يسمع كلام الله, وتصريح الآية بأنه لا يعلم حجة واضحة لا انفكاك منها،وهي وما قبلها برهان قطعي على إثبات صفة الكفر وحكمه على كل من تلبس بالشرك علم أولم يعلم ، عاند أو لم يعاند, قلد أو لم يقلد . وبهذا علمنا كفر أهل مكة من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وكفر الأقوام الذين بعث إليهم النبيون والمرسلون قبل بعثتهم ,وكفـــر من قال أن الله ثالث ثلاثة ,وأن الله هو المسيح أو عزير ابن الله , ومن قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه ، ومن قالوا يد الله مغلولة ، ومن قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ،ومن توجه بعبادته لغير الله، أو استشرع غير شرع الله كذلك .

البرهان الثانـي:

قــال تعالــى : {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِــرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ{172} أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْــرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ{173} وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{174} الأعراف , وهذه الآيات من أعظم دلائل القرآن المجيد وأجلها , وذلــك أنهــا أحكمــت بيان القضية ثم فصّلته في ذات الوقت , فبينت إقامة الحجة بالإشهاد وأخذ الميــثاق علــى التوحيد , ثم فصلت انقطاع العذر بهذه الحجة , سواء بالجهل أو التقليد في قوله تعالــى : (أن تقولــوا يوم القيامة أنا كنا عن هذا غافلين – أي جاهلين – أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون – أي كانوا مقلدين –) . وحاصل الحالتين الجهل وعدم العلم , فأثبتت ثبوت الحجة وقيامها على بني آدم بهذا الإشهاد, و انقطاع ا لعــذر بذلك . ومن ثم علمنا أن كل بني آدم يولدون على هذه الفطرة وهذا الميثاق وهذا الدين , فــإذا مــا بدّلوه ونقضوه علمنا كفرهم يقينا دونما التفات إلى جهل أو تقليد أو عناد أوغير ذلك, وبهذا التفصيل والبيان قال سيد المرسلين و هو المكلف بالبيان أصلا لكلام الله لقوله تعالى :
{ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } النحل44 .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(كل مولود يولد على الفطرة وفي رواية على هذه الملة ــ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كالبهيمة تنتج بهيمة ...)(متفق عليه) .

فصح كفرهم وإثبات هذا الحكم عليهم مع أنهم مقلدون لا يفقهون ولا يقدرون ولا يعلمون,كالبهيمة تنــتج بهيمة... ونحن نعلم يقينا أن كفر جماهير اليهود والنصارى والمجوس إنما هو كفر جهل وتقليد , ولم يعتبر الحكم الشرعي بذلك , وإنما أثبت حكم الكفر لهم , ولأن غير ذلك معناه إثبات حكم الإسلام والتوحيد ــ لا محالة ــ وهذا باطل جملة ومن حيث الأصل.

قــال صــلى الله علــيه وسلام : يقول الله تعالى : (إنّي خلقت عبادي حنفاء ,فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم , وحرمت عليهم ما أحللت لهم) ــ رواه مسلم ــ

ولفــظ اجتالتهم عن دينهم أي حولتهم عن دينهم كما جاء في لسان العرب لابن منظور, في مادة جــول . فصح أن من خرج من التوحيد وتلبس بالشرك , قد خرج من الدين الحق إلى دين الكفر والشرك , جهل أو علم , عاند أو لم يعاند ,قلد أو نظر وتأمل.

قال صلى الله عليه وسلم :(يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أريت لو كان لك ما على الأرض مــن شيء أ كنت مفتد به ؟ قال : فيقول : نعم , فيقول : قد أردت منك ما هو أهون من ذلك , قد أخذت عليك في ظهر آ دم ألا تشرك بي شيئا فأبيت ألا أن تشرك بي) (رواه مسلم)

أريـــد أن أ قول : أن فقيها عالما منصفا , لو جال بنظره في جوانب الشريعة كلها ليرى دليلا من الجلاء والوضوح والبيان في إثبات مدلوله لعزّ عليه أن يجد ما يفوق هذا الدليل الذي قدمناه جلاء ووضـــوحا وبيانا ولن نقبل أن يعارض مثل هذا النور ببعض التفاهات, أو الخلط في كلام الفقهاء فهذا الدليل حجة قائمة على صدق دعوانا وصحتها , لا مبطل لها ولا ناقض لقطعيتها .

وبهـــذا الـــتأويل لآيـــة الأعراف قال ابن عباس وأبي ابن كعب وابن كثير والقرطبي وابن جرير والبيـــضاوي وابن القيم وصاحب تفسير المنان وهذا الدليل ــ بفضل الله ــ عجز المخالف لنا عن رده بـــوجه يصح أو يعقل وإنما ذهب كدّه كله في قوله : وهذه الآية مشكلة , وبعضهم راح يذكر كـــلام طويل لابن القيم في أن الله لا يعذب إلا من بعد بعثة الرسل , فخرج عن موطن النزاع كلية ليـــتلاعب بكـــلام الأئمة , وما في أمر العذاب نتكلم , وإنما نتكلم عن ثبوت الحجة عليهم وثبوت كفرهم وخرقهم التوحيد, أما كون الله سبحانه وتعالى يعفو عنهم بفضل منه يوم القيامة , فهذا – لـــو كـــان –من خصوصيته سبحانه التي لا تجري بها الأحكام في الدنيا,فاحفظ هذا جيدا فإنه مما يتخـــبط فـــيه المخالفون لنا في هذه النقطة,وسنتقصى كلام ابن القيم رحمه الله وغيره في بحث ملحق إن شاء الله وقد زعم بعض المخالفين أن الإشهاد يأتي في اللغة بنوعين:

إشـــهاد قولـــي: مـــثل قوله تعالى:{وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ} البقرة 272 ، وقوله : {أَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ} البقرة 282 .

إشـــهاد حالـــي: مـــثل قوله تعالى : {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ } التوبة17 .

قالـــوا والإشهاد المقصود في آية الأعراف إنما هو الإشهاد الحالي لا القولي.قلت : وصاحب هذا الكلام أتى بعظيمة في الدين لأنه كذّب صريح لفظ القرآن { وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُـــواْ بَلَـــى شَهِدْنَا} الأعراف 172 . وإني لأعجب لهذا التجرؤ الفاحش ,يقول الحق سبحانه : {قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا} فيتطاول هذا بقوله : لا لم يقولوا. وأخرى بهذا أن يستغفر الله ويتوب إليه.

أقول : ومثل هذا التجرؤ على الشريعة سيأتي منه أعاجيب تقشعر منها جلود الذين يخشون ربهم مما نسبوه إلى الشريعة وأئمتها دفعهم لمثلها محض الهوى والانتصار للرأي .

البرهان الثالث:

قـــال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} الحجرات2 .

فصح بنص الآية الجلي الواضح أن هناك من يقع في الشرك المستوجب إحباط العمل من غير أن يعلـــم أن ما وقع منه هو الشرك الصريح لقوله تعالى : {وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} فهذا برهان واضح جلي لا ينكره إلا مكابر.

وأما من اعترض بأن رفع الصوت عند النبي صلى الله عليه وسلم ليس شركا فقد روي أنها نزلت في أبى بكر وعمر فليس اعتراضه بشيء , لأن الآية تقول : {أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ} فيدخل في ذلك مـــا يخـــشى أن يؤول صاحبه إلى الشرك المحبط للعمل , بيد أن وجه الدلالة في قوله {وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} مبطل التمويه .

وقـــد احتج بهذه الآية أبو محمد ابن حزم على عين ما قلناه فأبى مخالفينا إلا أن يلووا كلام ابن حـــزم ليا , ويمزقوه تمزيقا يمقته كل منصف , وهذا هو رأيهم , إذا وجدوا شاردة في كلام إمام توافـــق مذهـــبهم طاروا بها كل مطير , وإذا وجدوا من كلامه ما يخالف مذهبهم صراحة صاروا يؤولـــونها كمـــا فعلوا مع ابن حزم , وربما قالوا : إنها زلة عالم كما فعلوا مع الإمام الصنعاني رحمه الله , وبأذن الله سنتقصى فضائحهم في هذه القضية في بحث منفصل .

أعـــود فأؤكد أن الآية نصت على عدم اعتبار الجهل بالشرك في الحكم الشرعي وانه محبط للعمل يقينا والحمد لله على توفيقه .

البرهان الرابع :

قال تعالى : { وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا} بعض آية آل عمران103 .

فصح بنص الآية أن العرب المشركين قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا مستوجبين لعذاب النار أي كافرين مع أنهم كانوا قبل الحجة الرسالة إلا من نجاه الله ببعثة النبي واتباعه النور الذي أنزل معه.أقول: هذا البرهان ليس هو نص الآية فحسب, وإنما هذه الآية هي قاعدة شرعية عامة ومضطرة, فيدرج تحتها كافة النصوص المستفيضة في الكتاب والتي تتحدث عن رحمة الله للناس ببعثة النبي وأنه نجاهم به من الهلاك المبين, وأنقذهم به من النار ونحو ذلك, وهذا برهان نظري عقلـــي شـــرعي بديهـــي وذلك أنه إن لم يكن العرب قبل البعثة كفارا مشركين, فضلا عن كونهم معـــذورين معفـــى عنهم ما هم فيه ومن عذاب الله هم ناجون, فأي رحمة جاءت لهم, وأي نجاة نجوها,وأي إنقاذ أنقذوا منه, إلا أن يكونوا كفارا مشركين مستوجبين لعذاب الله وبطشه, فرحمهم

الله ببعـثة النبي , مذكرا إياهم بالله وهديه وأيامه, فمن تبعه هدى ونجا, ومن استمر على كفره وضلاله خسر وذل, هذا بيان واضح تدركه كل فطرة مستقيمة .

ولا يعتـرض علينا هنا بقوله تعالى : {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } الإسراء15، لأنها مجملـة مـن حيث الواقع فيما قبل الرسالة,ومحتملة بالنظر للفظ العذاب على ما سنبينه بتوضيح شديد إن شاء الله فيما بعد, وعلى وجه العجالة هنا أقول أن أقوى تفصيل لإجمال هذه الآية أنها لا تقع في من سقط في الشرك واستقام لما عليه قومه من الضلال, هي فيمن رأى ما عليه قومه من الـشرك فاجتنبه وتبرأ منه ولكنه عجز عن درك ما يتوب به إلى الله سبحانه من الطاعة والعبادة وهـذا التفـصيل أحـسن بـيانه ابن القيم في كتابه" طريق الهجرتين" والإمام الشاطبي في كتابه الاعتـصام, ولـيس فـي قولهما الحجة وإنما الحجة في كون الآية مجملة من حيث واقع ما قبل الرسالة وظنية من حيث احتمالية لفظ العذاب على ما سيأتي بإذن الله لها من توضيح.

عن مسروق قال : قالت عائشة: يا رسول الله إن ابن تجدعان كان في الجاهلية يصل الرحم وطعم المـسكين, هـل ذلك نافعه؟؟ قال: لا ينفعه انه لم يقل يوما رب غفر لي خطيئتي يوم الدين (رواه مسلم) فصح يقينا أنه محاسب بشركه مع أنه لم تمض عليه الحجة الرسالية .

وعـن أنس رضي الله عنه أن رجلا قال, يا رسول الله أين أبي ؟ قال في النار, فلما قضى الرجل دعاه فقال: إن أبي وأباك في النار(رواه مسلم) .

وهذا برهان قطعي الدلالة يؤكد ما دل عليه سابقه مع الآية المباركة التي سقناها مع القاعدة التي قررناها من مستفيض النصوص القرآنية ،وهو يثبت بالقطع صحة مذهب ابن القيم والشاطبي في تقيم أهل الفترة ومن هم قبل الرسالة .

بـيد أن هـذا الحديث فيه نكتة زائدة رائعة قسمت ظهر المخالف,وذلك أن بعضهم اعترض على الحـديث السابق بقوله:" إنها وقائع فردية لا تتعدى أصحابها" ،ومع ظهور فساد هذا إلا اعتراض وبطلانه إلا أن حديث أنس جاء فيه أن الرجل بعد أن ولّى ناداه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن أبي وأباك في النار, فالنبي إذا أراد أن يقرر للرجل ولمن حوله قاعدة عامة ليست فقط مختصة بأبيه وحده وإنما هي عامة في أهل الجاهلية,وقد صح ذلك في حوادث أخرى كأم النبي صلى الله عليه وسلم وعمر وابن لحي وغيرهما.

ولمـا ضاق المقام ببعض مخالفينا قالوا: أنهم كانوا على بقية من دين إبراهيم كانت كافية لإقامة الحجة عليهم, ولو نصح القوم أنفسهم ودينهم لاستحيوا من مثل هذه الاعتراضات, ولكن أراد الله أن يفضحهم بذات كلامهم, فأفصحوا عن كونهم لا يدركون حتى حدود القضية التي يتكلمون فيها .

يـا قوم.. إذا كان أهل زماننا نحن فيمن توافر في بيت كل امرئ منهم أكثر من نسخة لكتاب الله الكـريم بنصه وحرفه كما أنزل على النبي المرسل, وتوافرت عشرات كتب التفسير, وكتب السنة والحـديث, وكتب الفقه,وغيره, حتى تفشي العلم بما لا يجهله إلا معرض غافل, بمحض اختياره

ورضـــاه,و قاســـى الدعاة لهذا الأمر في كل جانب وكل يوم في أركان البلاد , وقتل من قتل منهم وصـــلب من صلبه, وسجن من سجن, وذاعت أخبارهم في كل صوب وحدبه, إذا كان هؤلاء كما قلتم أنهم معذورون بجهلهم وقلة العلم بآثار الرسالة وقلة من يقوم بالبيان لهم, فبربكم أخبروني: كيف كانت الكتب السماوية وصحف إبراهيم وموسى؟ محضا لم تشبها شائبة طمس أو تبديل.

فضلا عن تفسيرات العلماء لهم وشرحها وذيوع من يقوم بالدعوة إليها بحيث أجزتم لأنفسكم أن تقولـــوا أنهم غير معذورين بجهلهم وقامت عليهم الحجة بما يقطع العذر وينفي الشبه, بينما أهل زمانـــنا وقـــد علمـــت عـــنهم ما علمت, أنهم معذورون بجهلهم و قلة العلم بآثار الرسالة فيهم ...نبؤوني بعلم إن كنتم صادقين؟؟؟ ،وإذا كنتم تحتجون على شرط الحجة الرسالية لانقطاع العذر بقولكم أن الكافرين يحتج عليهم يوم القيامة بقول آخر هو: {...أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ{8} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ{9} الملك .

أفـــلا تـــرون معي أيها الصحاب أن عبد الله بن عبد المطلب وآمنة بنت وهب ,وعمرو بن لحي , وابن جدعان, وأبو من قال له النبي أبي وأبوك في النار,ألا ترون أنهم سيحتجون بأنهم ليسوا من أهل هذه الصفة المذكورة ؟

أيها الصحاب: هل ترون معي أن أبا النبي صلى الله عليه وسلم وأمه وابن جدعان وغيرهم وعامة مشركي مكة قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ,هل ترون أن الحجة الرسالية قد أقيمت عليهم قياما بيّنا– كما تشترطون – بما يوجب العلم في ذاتهم وانقطاع الشبه, وبان فاهو مذهب عمرو بـــن لحـــي وأمـــثاله, ثـــم أبى هؤلاء بعد كل هذا البيان إلا الرضا بدين الكفر و الشرك بالله وهم يعلمـــون,؟؟ فما لكم كيف تحكمون؟؟؟ ولقد حكى القرآن الكريم عن أهل مكة احتجابهم على النبي صلى الله عليه وسلم بقولهم : {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ } ص7, بل كانـــوا يتعجـــبون من دعوته ويستغربون منها بقولهم: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } ص5.

أيها الناس: إن هذه الدعوة لهي أعظم بيانا على اختلاف المعاني في أذهان وضمائر القائلين بعذر جاهل التوحيد واضطرابها في أفكارهم, ثم بعد لا يزالون يفتون الناس ليضلوهم بغير علم.

أقول: وهذه الأحاديث مع الآية السابقة, مع القاعدة المبنية آنفا أدلة وبراهين قطعية على معاقبة المشركين بشركهم, ولو جهلوا أو قلدوا ولم يبعث إليهم رسول, وهذا هو المذهب الصحيح في هذه القـــضية كمـــا سنوضـــح بعد قليل إن شاء الله عند تحقيق الكلام عليها ,بما يزيل الابهام ويرفع العارض عن آي الكتاب ، قال تعالى : {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً} النساء82 .

فالعــذاب الذي نفاه في صورة الإسراء, غير الذي أثبته في البيان السابق أوحال هؤلاء يقينا, ما سنبين بإذن الله تعالى .

البرهان الخامس :

قال تعالى : {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ } الأنعام137 ، وهذا برهان جلي لا انفكاك منه لذي بصيرة ,وفي هذه الآية المباركة دلالتان كلاهما حاسمة في هذا النزاع ...أهل الفترة , وهذا من أوضح ما تكون الحجج .

الثانية : في قوله : {زَيَّنَ} , { وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ }, فصح أن القوم كانوا يظنون في فعلهم أنـــه حق وليس من الشرك , لتضليل سادتهم , ولم يعتبر الله سبحانه ذلك الجهل منهم والالتباس الـــذي وقعوا فيه وهذه النقطة سنتحدث عنها إن شاء الله باستفاضة في فصل لاحق عند الحديث عن موضوع الإضلال , ونبين مدى تخبط القوم في فهم هذه القضية بتحديدها الشرعي .

ومـــثل ما سبق قوله تعالى : {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ } الأنعام140 ، وهذا برهان آخر قائم بذاته , ويـــزيد فيه قوله تعالى : (بغير علم) فصح أن الحجّة العينية التي يتحقق بها العلم وتنتفي معها الـــشبه لـــم تكـــن قائمة , وان كان الأمر في ذلك واضحا ابتداء إلا أنّ الآية قد أكدت هذا المعنى لتخرس كافة الألسنة فالقوم ما فعلوا فعلهم إلا سفها بغير علم, وفي هذا البرهان يدخل قوله تعالى : {بَــلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ } يونس39 , وأيــضا : { أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَــمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } النمل84 ؟؟ فكل ما قدمناه من آيات و دلائل قاطعة حاسمة في إثبات كفر من خرق التوحيد ولو كان جاهلا لا يعلم .

وهـــنا تعليق بسيط لابن عبد الوهاب وبن القيم نسوقه على عجالة , مع وعد بتفصيل الكلام الذي ورد عـــنهم في القضية عامة في بحث لاحق. قال ابن عبد الوهاب : "فأنت إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها لسانه , وقد يقولها وهو جاهل فلا يعذر بجهله". وصدق والله ابن عبد الوهاب ومـــا خرج عن السنة قيد أنملة, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(إن الرجل ليقول الكلمة ما يتبن ما فيها, يهوى بها في النار سبعين خريفا) رواه مسلم .

وقد لخص ابن القيم ما دلت عليه الآيات السابقة, وما قدمناه في البرهان الأول بكلام جيد في كتاب :(طريق الهجرتين) حيث قال :" والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له والإيمان بالله ورسوله واتباعه فيما جاء به فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم , وإن لم يكن كافرا معاندا فهو كافر جاهل, فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين, وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفارا ,فإن الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسول إما معاندا أو جاهلا أو مقلدا لأهل العناد", وهذا

منه رحمة الله أوضح ما يكون به التفصيل والتحديد ، أقول : وكلام الله أولى , وكتاب الله أعلى , وحجة الله أقطع , وننبه على أن مسألة العلم و شرط تحقيقه لإقامة الحجة سنفصلها أيما تفصيل بـــإذن الله في فصل لاحق عند الحديث عن صفة الحجة وكيفية إقامتها والشرط فيها, هل إمكانية العلم أم تحققه فعلا.

البرهان السادس:

قـــال تعالى : {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ{1} رَسُـــولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً{2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3} البينة ، قال قتادة ومجاهد منفكين يعنـــي منتهـــين حتى يتبين لهم الحق ,فهذا برهان قاطع على صدق دعوانا, سمى الله من تلبس بالـــشرك من العرب ـــ مشركين ـــ ومن أهل الكتاب ـــ الذين كفروا ـــ مع تصريح الآية ذاتها بأن ذلـــك قبل أن تأتيهم البينة وهي الحجة الرسالية كما فسرتها الآية ذاتها.فصح يقينا ما قدمناه, من أن مـــن تلبس بالشر ك حكم بكفره وأنه مشرك كحكم عملي ظاهر في واقع الحال يتميز به الناس فـــي الدنيا و دونما نظر لعلمه وعناده, أو جهله وتقليده, وقامت عليه الحجة الرسالية أم لم تقم, أما مسألة عذابه يوم القيامة بشركه أو العفو عنه بجهله فهي قضية أخرى غير تلك ونتكلم عنها إن شاء الله فيما بعد.

وفـــي الآية السابقة نكتة رائعة نفصل دلالتها عند الحديث عن مسألة حد الحجة وضابط البينة إن شـــاء الله تعالـــى .هـــذا ما وفق الله إليه من الحجج والبراهين بفضل منه ورحمة, ونعرض الآن لمجمـــوع شبه المخالفين, وبيان فساد احتجاجهم فيها وإظهار مدى تخبطهم في ضرب النصوص بعضها ببعض من غير علم ولا هدى, وكيف تجرءوا على الشريعة لمحض الانتصار للرأي .

وبـــين يـــدي هذا الجواب أود التنبيه إلى قاعدة جليلة قررها الحق سبحانه في كتابه واتفق عليها الأصـــوليون جمـــيعا وهي من أبسط أسس الفهم: هي ما ثبت بقطع ويقين في دين الله , لا يجوز إبطاله بالظن والاحتمال, وأنه إذا ما ثبت حكم شرعي بوجه القطع وعارضه ما هو ظني أو محتمل وجـــب صـــرف الظن بما يوافق اليقين وحمل المحتمل على ما لا يحتمل قطعا . قال تعالى: { إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً } يونس36 .

شـبــهـات واعــتـــراضـــات

فـصـل

الشبهة الأو لى:

قال تعالى: { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } الإسراء15 .

قالوا : فصح أن الله لا يعذب أحدا إلا من بعد بعثة الرسول إليه, فالمشرك لا يعذب بشركه إلا من بعد الحجة الرسالية وقيامها عليه. قلت:لو صح فهمكم هذا من هذه الآية على هذا الوجه ووافقناكم علــيه لسقط اعتراضكم علينا في قضيتنا كلية, وهي إثبات حكم الكفر على من خرق التوحيد ولو كان جاهلا ولم تبلغه الحجة الرسالية , وذلك لأننا ما تعرضنا لأمر العذاب أو العفو, وإنما يا أيها الــصحاب نحــن نتحدث عن إثبات حكم الكفر وصفته وتلك قضية فحاذروا من هذا الخلط وافقهوا مواقع الكلم قبل الخوض فيه.

يقــول العلامة الشنقيطي – رحمه الله – :اعلم أوّلا أن من لم يأته نذير في دار الدنيا وكان كافرا حتـــى مات , اختلف فيه العلماء , هل هو من أهل النار لكفره آو هو معذور لأنه لم يأته نذير" ، تأمــل قــوله:" وكـــان كافـــرا حتى مات" فحكم الكفر وصفته لازمة له غير منفية عنه كما يزعم المبطلون وإنما موضع الخلاف هو: هل يعذب بكفره أم يعذر بعدم بعثة النذير إليه.

ألا تــرون أيها الصحاب أنكم خلطتم الأمور واختلطت عليكم المفاهيم , فما تدرون علام تدل هذه الآية , ولا علام تعترضون على مخالفكم، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

فثبت أن الآية ليس فيها أدنى إشارة لموضوع كفر من خرق التوحيد في دار الدنيا وهو جاهل أو لم يأته نذير؟؟, وإنما الآية تتحدث عما وقع فيه نزاع بين العلماء , هل هو في النار لكفره أم يعذر لجهله؟؟ إذا صح ذلك أقول : لما تقرر أن كلام الله تعالى لا يختلف ولا يتعارض بنص قوله: { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً} النساء82 ، ولما سبق وتقرر من وجوب رد النزاع إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لقوله : { فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } النساء59 .

لما تقرر ذلك أقول : قد ثبت بوجه القطع واليقين مما قدمنا من دلائل الكتاب والسنة أن المشركين معذبـــون قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم حتى نجاهم الله ورحمهم ببعثته , ومن قبله كانوا معذبين و مستحقين للنار ومقتهم الباري عربهم وعجمهم إلا بقية من أهل الكتاب ممن بقوا على التوحيد المحض .

أقول: قد ثبت ذلك آنفا ببراهين قطعية الدلالة لا مدفع لها ثم نظرنا إلى آية سورة الإسراء :

{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً }.

فعلمنا أن الأمر لا يخلو من أحد وجهين ،إما أن الذين نفي عنهم العذاب هنا غير الذين أثبت عليهم العــذاب كما قدمنا, وإما أن العذاب المنفي هنا غير العذاب المثبت هناك , هذه نقطة بدء أولية لا محيص عنها لما تقرر من أن كتاب الله لا يضرب بعضه بعضا.

أما بالنظر لما دل عليه لفظ العذاب في الآية فنجد أنه لفظ مجمل ومحتمل في ذاته , فهو قد يعني العذاب الأخروي بالنار والعياذ بالله وأشركت به .

وذلك مثل قوله تعالى : {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّــبِعَ آيَاتِــكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى } طه134 ، ومثل قوله تعالى أيضا : {ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } الأنعام131 .

حــيث قد جرت سنة الله في أن لا يدمر قرى الكافرين إلا من بعد إرسال الرسول إليهم , ولقد دل سياق آية الإسراء على ذلك قال تعالى : { مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً{15} وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِــكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً{16} وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً{17} الإسراء .

أقول : بل إن النظر والتأويل ليقع بترجيح هذا التأويل للآية و هو ما عليه جمهور آهل التفسير و العلــم , يقــول إمام المفسرين القرطبي عند تفسير هذه الآية " و الجمهور على إن هذا في حكم الدنيا أي إن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا بعد الرسالة إليهم و الإنذار".

أقــول: و لا حجــة عندي في رأى الجمهور أو القليل و إنما الحجة في إثبات أن الآية محتملة , تحــتمل هــذا المعنى و تحتمل خلافه , و القاعدة الأصولية تقول : ما دخل فيه الاحتمال بطل به الاستدلال, و وجوب حمله على القطعي إن عارضه.

وهناك وجه آخر في تأويل الآية ذهب إليه جماعة من أهل العلم وهي أنها للأحكام الشرعية التي لا تثبت إلا بنص وليس في أصل التوحيد أو في عذر المشركين وهذا رأي له وجاهته وهو احتمال قائم فعلا في ذات النص لا سبيل إلى إبطاله و سيأتي له تفصيل بعد حين.

يقول القرطبي عند تفسير الآية : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } "وفي هذا دليل على أن الأحكــام لا تثــبت إلا بالــشرع خــلاف المعتــزلة القائلــين بــأن العقل يحسن ويقبح , ويبيح ويحظــر",ويقول النيسابوري :"وما كنا معذبين- في الأعمال التي لا سبيل إلى معرفة وجوبها إلا بالــشرع-إلا بعــد مجيء الشرع." ويقول الطبري :" إن الآية على التخصيص في ما لا يعرف إلا بالشرع من واجبات وفرائض وفروع الشريعة. "

أقول : ولا حجة عندي في جزم من سبق برأيهم , وإنما مدارها ــ الحجة ــ على احتمالية الآية لإفــادة هــذا المعنــى في ذاتها , وما دخل فيه الاحتمال سقط به الاستدلال كما يقول الأصوليون ونخــرج مــن ذلك بأن الآية لا تفيد في ذاتها برهانا قطعيا لازما يقطع به للمخالف يدل على رفع العــذاب عن المشرك يوم القيامة لجهله قبل الرسالة ,ولا يحق لمنصف أن يعارض بمثلها ما ثبت

بوجه القطع واليقين من انقطاع العذر و ثبوت الحجة بالميثاق والإشهاد, وثبوت عذاب المشركين قبل بعثة محمد صلى عليه وسلم .

وقد ذهب جماعة من المحققين إلى الكلام في الآية من وجهة واقع دلالتها ومناط عملها, وحاصل كلامهم أن الناس قبل الفترة قسمان : قسم تركوا ملة الشرك وتبرءوا مما عليه قومهم من حرق توحيد الله عز وجل , ولم يشاركوهم عبادة غير الله , ولكن وجودهم في زمن الفترة وانطماس أثر الرسالات والشرائع السابقة جعلهم يجهلون الشريعة التي يتقربون به إلى الله عز وجل , فهؤلاء هـم المعـذورون بآيـة الإسراء وما شابهها , ولو صح حديث العرصات والأربعة الذين يدلون بحجتهم لكان هذا منهم ,وقسم آخر ساقط في الشرك منابع لما عليه أهل الشرك مشارك لهم غير مائـل علـى البحث عن غير دينهم . سواء وجد غير هذا في زمانه أم لم يوجد, وهذا القسم غير معـذور بجهلـه ولا يدخل في مقتضى آية الإسراء وحديث العرصات , وإلى هذا الرأي ذهب ابن القيم في كتابه (طريق الهجرتين) والشاطبي في (اعتصام) .

أقول : وهذا تحقيق قوي متين , يدل على رجاحة عقل قائله , ودقة نظره وهو أقوى تفصيل لآية الإسراء , ولا يجرأ عاقل منصف على رده أو إبطاله,وكل هذه الاحتمالات والوجوه الثابتة تؤكد ما ذهبنا إليه من أن آية الإسراء ليست قطعية الدلالة في ذاتها على عذر المتلبس بالشرك ونجاته من عذاب يوم القيامة لجهله أو عدم بعثة الرسول إليه .

هذا .. وللحنفية رأي ومذهب في الآية يؤيد ما ذكرنا ويأتي بعد حين إن شاء الله . أقول : فانظر يـرحمك الله إلى تحقيق ابن القيم و الشاطبي مع أنه في من هم قبل البعثة وانطمست عندهم آثار الرسالة و كذلك قول من قدمنا من العلماء , ثم تأمل واقع الناس اليوم المنتسبين إلى الإسلام وما توافـر عندهم من العلم والبيان وحفظ الذكر من الاندراس والإنطماس, لتعلم مدى فحش مخالفينا عندما زعموا أن هؤلاء القوم هم من تنازع فيهم العلماء أمعذورون هم بجهلهم أم لا, اللهم فإليك نشكو ونلجأ وأنت بصير بالعباد.

أعـود فأذكر: أن هذا النزاع في قضية العذاب والعفو, والذي نحقق فيه الكلام الآن , هو في غير موضـوع الخـلاف الذي نحن بصدده أصلا و هو ثبوت حكم الكفر على من تلبس بالشرك جاهلا بذلك قبل الرسالة وبعدها على حد سواء ، فهذا هو ما لم يجرأ المخالف حتى الآن على سوق دليل لإبطالـه أو معارضته فلما رأى مخالفونا ذلك فيما احتجوا به ، راحوا يحشدون عدة آيات تتكلم عن تقريع الخزنة مثلا لبعض أهل النار مثل قولهم : {...أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ{8} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيـرٌ ...... {9} الملـك ، وقـوله تعالـى : {أَلَـمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُـنذِرُونَكُمْ} الزمـر71 ، وقوله تعالى : {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } النـساء 165، قالوا فصح أن الحجة التي يحتج بها الخزنة على الكافرين هي الحجة الرسالية . قلت : وهذا ليس بالاحتجاج الحسن ، المبني على تمحيص الأدلة والنظر الدقيق

واحتجاج بدليل خطاب لا بدليل نص واثبات يفيد القطع ، وقبل الجواب على احتجاجهم ، أنبه إلى إن الآيـــات أيـــضا في غير موضوع الخلاف الأصلي ، و إنما نحن سنتكلم عنها استكمالا للتحقيق الذي قدمناه في قضية العذاب والعفو .

أما احتجاج الخزنة على بعض أهل النار بقولهم : {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى}, فهذا ليس بالحصر لأهـــل الـــنار بدليل قول الكافرين في ذات النص { قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ{9} الملك , ونحن نعلم يقينا أن ليس كل الكافرين كذبوا الرســـول ابتداء وكذبوا ما جاء به جملة وعلى الغيب, ومنه من صدق بالنذير وبما جاء به جملة ولكـــنه استهزأ ببعض الشريعة ولو شعيرة منها , ومنهم من لم يكذب ولكن عبد مع الله اله آخر ولـــو بالـــتأويل الفاسد حتى بعد محاجته واثبات بطلان ما هو عليه , ومنهم من صدق ولم يكذب ولكنه شرع للناس شرعة أحل بها وحرم وقضى بها في دماء الناس وأعرضهم كأحبار أهل الكتاب ورهبانهم ومن عبدوهم , وليس الكفر هو مجرد تكذيب الرسول وما جاء به جملة, ومن قال بذلك فهو مقطوع بفساد عقله أو تحديه للشريعة جملة, وكذلك نعلم يقينا أن هناك طوائف يحتج عليهم الباري بعض الميثاق الذي أخذه عليهم وأشهدهم عليه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أ رأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به؟ قال : فيقول: نعم , فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك , قد أخذت عليك في ظهر آ دم ألا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي) (رواه مسلم)

فهذا بيان واضح بأن الباري احتج عليهم بالميثاق لا ببعثة الرسل خاصة وذلك مصداقا لقوله تعالى : { أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } الأعراف172 , فصح قيام الحجة بالميثاق , وانقطـــاع العـــذر بالبرهان القطعي والدليل البين , وكذلك نعلم يقينا أن عبد الله بن عبد المطلب وزوجه وابن جدعان وعمر وبن لحي وغيرهم ممن قدمنا بيان دخولهم النار ليسوا ممن يقولون : { بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ{9} الملك.

ثم نسألهم : هل أهل الفترة عندكم في النار أفي الجنة , أم يختبرون في العرصات ؟ فإن قالوا في الجنة كذبوا , وكلفناهم الدليل ولا وجود له بإذن الله فضلا عن مخالفتهم للقاعدة الشرعية المقررة فـــي قـــول النبي صلى الله عليه وسلم :(لن يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة) , فضلا عن مخالفة ذلك لحديث الأربعة المحتجين على الله يوم القيامة , وهم يعتبرونه حجة على قولهم ــ وسيأتي ــ فلم يبق معهم إلا القول بأنهم في النار أو يختبرون في العرصات , فإن قالوا يختبرون في العرصات , قلنا : فمن عصى منهم فهو في النار ضرورة .. أليس كذلك ؟؟؟

فإن كان ذلك كذلك فقد صح أن هؤلاء الذين دخلوا النار منهم وصاروا من أهلها لا يصح الاحتجاج علـــيهم بقول الباري : {...أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ{8} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ

مــن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ{9} الملك أو بقوله تعالى : {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَــذَا } الزمر71 .

أقــول : لمـــا صح ذلك لزمكم التعليم معنا بأن هذه الآيات إما هي واردة في بعض أهل النار دون بعــض , ويصح قطعا ما قدمناه من أن هذا الدليل دليل خطاب فاسد إذ أثبت صفة أو قيدا فهو لم يــنف خلافهـــا بيقين وقطع, وصح أن هذه الآيات لا تصلح لكم حجة على قولكم بحال, وبإذن الله تعالـــى ســنزيد الكلام تفصيلا على دليل الخطاب عند جوابنا على استدلالهم بقوله تعالى : {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ..... } النساء115 .

وجمـــاع القـــول هـــنا أن هذه الآيات هي حق في بعض أهل النار وهم من جاءهم رسول فكذبوه وكذبوا بما جاءهم به جملة , أو من زعم أن الاسم الموصول ــ الذي ــ في قوله تعالى :

{ وَسِــيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا.... } الزمر71 ، يفيد عموم الاستغراق للجنس , فدل على أن المقصود كل أهل النار , وكذلك لفظ: ــ كلما ــ في قوله تعالى : {.... كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ .... } الملك8 , أقول : هذا تمويه فاسد , والحق والعدل أن هناك ألفاظا في العربية تفيد دلالة عموم الاستغراق للجــنس مـــا دام لـــم يثــبت غير ذلك بقرينة , فإن ثبت وجب صرفها عن الاستغراق لأن دلالة الاســتغراق فيها ظنية كما تقرر ذلك في الأصول , والقرينة إما أن تكون من ذات النص وإما أن تكــون مــن خارجــه, فقرينة النص ذاته مثل قوله تعالى : {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ... } آل عمران173 , فعلمنا بقرينة ذاتية في النص أن الألف واللام هنا لا تدل على الاستغراق , فالناس الذين أخبروهم غير الذين جمعوا لهم , غير المؤمنين أصلا . أما القـــرينة الخارجية فهي كثير في أحكام الشريعة كقوله تعالى : {... وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْــتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم .. } النساء24 , فلفظا ــ ما ــ يفيد الاستغراق لتحريم غير ذلك, ولكن ثبت في نصوص أخرى نقض هذا العموم ورفع حكم الاستغراق ,لقول النبي صلى الله عليه وسلم :(لا تنكح المرأة على عمتها وخالتها)(رواه البخاري) ــ وكذلك لفظ ــ كلماــ فهو مقرون في الآية بلفظ ـــ فوج ــ , كلما ألقي فيها فوج ــ ولفظ ــ فوج ــ نكره مطلقة , صح تقييدها في ذات النص بأن المقصود بها هم الذين كذبوا الرسول وما جاء به جملة وقالوا : { ...مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنــتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ } الملك9 , فيعود الكلام فيها على التحقيق السابق والحاصل هنا أن اللفــظ قــد يــدل علـــى الاستغراق ما لم يثبت صرفه عنه , فإن ثبت وجب الصرف , وفي هذه النـــصوص ثبت أن الاستغراق ليس على العموم بقرينة قطعية من أدلة أخرى خارج النص , هذا فــضلا عــن أن عمـــوم الاستغراق دلالة ظنية لا قطعية كما هو مقرر في الأصول إلا من شذ من الحنفية .

أمـــا الجواب على استدلا لهم من الآية : **{ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ...}** النساء165 .

فكما قدمنا مدار الدلالة في النص على مناط عمله وهم – الناس – فلفظ الناس هنا عامة لم تحدد صفة هؤلاء المعنيين بالآية هل هم من تابعوا قومهم بالشرك وعبدوا غير الله واستناموا لذلك , أم هـــم من تبرؤوا من الشرك ولم يجدوا الشريعة التي يتوبون بها إلى الله ,ويدخل في ذلك طوائف عـــدة من العرب قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ومن أصناف اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم كما تقرر ذلك قبل وحققه ابن القيم و الشاطبي .

وكـــذلك لفظ " حجة " فموضوع العذر ليس مقصودا على نقض التوحيد , ومن زعم ذلك في الآية كلفـــناه الدليل والبرهان , وقد كان جائزا في حق الله تعالى أن يعذب الناس على ما يقترفونه من المعاصـــي والفواحش الظاهرة التي تنكرها الفطر المستقيمة كاللواط والزنى وأكل الربا وتطفيف الميزان و الظلم ووأد الصفار ونحو ذلك ,فكل هذه المعاصي تدخل في مجال العذر , ويصح القول بأن الله عذرهم فيها ورفع عنهم العذاب بها رحمة بهم إلا من بعد الرسول , وقد سبق أن نقلنا لك ذلك عن القرطبي والنيسابوري والطبري , وإليه ذهب أبو حنيفة كما حكاه عنه الكاساني في بدائع الصنائع.

أقول : وليس الحجة عندي في قولهم , وإنما الحجة في أن الآية تحتمل هذا الوجه , فوجب ولزم الـــصرف عليه , لما ثبت وتقرر من انقطاع العذر و قيام الحجة بالميثاق والإشهاد وثبوت عذاب المـــشركين بـــشركهم قبل البعثة ولا حجة لهم عند الله ,وهذه قواعد في الفهم لا ينكرها ذو عقل سليم,وهذا تحقيق أصولي واضح جلي مبني على توفيق الأدلة الشرعية وفهمها و فق أسس الفهم المتفق عليها , لا على أسس الرأي المجرد والتقليد المقنع كما يفعله مخالفونا .

وقد ذهب بعضهم للاحتجاج بقول النبي صلى الله عليه وسلم :(وليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين) ــ وفي ما يبدو أن لفظ – العذر– قد استهوى القوم فـــصاروا يطيـــرون به كل مطير ,كلما عثروا عليه في ثنايا النصوص دونما تحقيق لمناط حكمه ومدى قطعية دلالته على نوعية معينة من الناس وهم من تلبسوا بالشرك جاهلين به قبل الرسالة أو بعـــدها , وجامع الجواب هنا أن النص لم يتعرض لموضع الخلاف وهو ثبوت حكم الكفر على من تلبس بالشرك في واقع الناس وظاهر الحال و إن كان جاهلا , قبل الرسالة وبعدها وكذلك لفظ – العـــذر – هـــنا مطلق ويمكن تنزيله على منازل متعددة لا على صفة وحدها محددة على وجه الحصر والقطع فجائز صرفه على أهل القرى الظالمة و إمهال الله لها وعدم إهلاكهم إلا بعد البعثة إليهم وجائز صرفه على أهل المعاصي والفواحش الظاهرة التي تنكرها الفطر المستقيمة كاللواط والزنـــى والظلم ونحو ذلك،وجائز صرفها على تفضيل من اجتنب الشرك وتبرأ من عبادة غير الله

ولكـــن جهـــل مـــا يتقرب به إلى الله من شرع ، وبين من لابس ما عليه أهل عصره من الشرك واستنام لذلك كما فصله ابن القيم والشاطبي وقدمنا تفصيل كل ذلك قبل قليل .

وحاصـــل هذه النصوص التي احتج بها المخالف في هذه النقطة أنها دلت على مطلق العذر فكانت ظنـــية الدلالـــة محـــتملة من حيث الابتداء ، فبطل أن يعارض بها الدلائل القاطعة على قطع حجة المشركين بجهلهم يوم القيامة ، فصح أن تلك الأدلة تقييد لمطلق آيات العذر وتخصيص لعمومها وتفصيل لمجملها .

أعود مرة أخرى لأذكر وأنبه على أن الخلاف الطويل السابق والذي حققنا فيه الكلام – بحمد الله – إنمـــا هو في مسالة عذاب المشركين الجاهلين يوم القيامة بشركهم أو عذرهم بجهلهم ، وهذا خلاف اصل القضية المطروحة في هذا البحث وهي : لزوم صفة الكفر وحكمه على كل من خرق التوحيد وتلبس بالشرك سواء أكان جاهلا أم عالما ، مقلدا أم معاندا ، كل ذلك سواء . فيخلص لنا بفضل الله أدلتنا القاطعة التي سقناها سابقا على قولنا ، لان المخالف في هذه النقطة لم يأت بأي دليل معارض لها فضلا عن أن يكون قطعي الدلالة ، و إنما كل ما ساقوه من أدلة واحتجاجات إنما هـــي فـــي أمر عذاب المشرك الجاهل وعذرها ، ومع ذلك فقد حققنا الكلام فيها بما تفضل الله به علينا ، ويسره بلطفه ، وبما يجلو به وحق الحق والله الموفق .

الشبهة الثانية :

احتجوا بحديث الرجل الذي ذرّ نفسه ، ونص هذا الحديث في الصحيح : عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال رجل – لم يعمل حسنة قط – لأهله, إ ذا مات فأحـــرقوه ثـــم ذروا نصفه في البر , ونصفه في البحر,فوا لله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين, فلما مات الرجل فعلوا به كما أمرهم , فأمر الله البر فجمع ما فيه, وأمر البحـــر فجمع ما فيه,ثم قال: لم فعلت هذا , قال من: خشيتك يا رب وأنت أعلم, فغفر له) (رواه البخاري).

قالوا؟ فهذا رجل شك في قدرة الله تعالى ومع ذلك عذره الله بجهله وسوء فهمه .

قلت : في البداية, وحتى تتحدد جوانب القضية, ولا تختلط المفاهيم بما يروق للمبطلين المموهين , أقـــول: من أجل ذلك لزم التنبيه على أن هذا الحديث لم يتعرض لصلب القضية ومدارها وهي : هل كان هذا الرجل مع قولته التي قال – لو صح تأويلهم لها – هل يكون حكمه في الدنيا كافرا أم لا ؟ هـــذا هو مدار النزاع وهو ما لم يتعرض له الحديث .من هذا النص إنما هو في قضية عذاب المشرك بشركه أو العفو عنه بجهله هذا تمهيد ضروري للكلام حول هذا الحديث. أما جوابنا على فهمهم من هذا الحديث من عدة وجوه :

الأول:

أن مـــدار حجـــتهم فيه على قول الرجل (لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا) ومن هنا نقطع بفساد احـــتجاجهم من هذه القولة على دعواهم كلية , وذلك لأنها حسب مقتضيات اللغة مشكلة , وهي مثل لفظ القرء في الآية {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ ... } البقرة228 , فلفظ – القـــرء– يطلـــق في لغة العرب يطلق على الحيض وعلى الطهر , وكلاهما على وجه الحقيقة لا المجاز, وإنما لجأ الفقهاء في ضبطها إلى القرائن كما تقرر في موضعه .

وفـــي هذا النص ـــ حديث الذي ذر نفسه ـــ نقول نفس الكلام , فلفظ ـــ قدر عليه ـــ يأتي في لغة العرب على ثلاثة معان كلها حقيقية فيه وهي :

–القضاء – و–التضييق – و– الاقتدار والقهر– ومن شاء وطلب التفصيل فليراجع الفيروزابادي في – القاموس المحيط – وبن منظور في لسان العرب مادة " قدر" وقد ساق بن منظور الأدلة ، وأحـــدها القـــرآنية بقـــوله تعالى : { وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ ... } الفجر16 لمعنى التضييق , وقدر الله الخير،قدره بمعنى قضاه. إذا صح ذلك فقد علمنا يقينا بطلان الاحتجاج بهـــذا الحديث وهذا اللفظ الوارد فيه , على أنه جاء بمعنى الاقتدار والقهر, بمعنى أن الرجل شك في قدرة الله تعالى , وصح أن من زعم ذلك فإنما تحكم بمحض الهوى والتلذذ أو قصور عنده في تمحـــيص الدلـــيل , ثم نحن نكلفه البينة ولا بينة له هنا , وهذا بيان واضح بفضل الله ليس فيه وإشـــكال , ففسد دليلهم بالمرة. بيد أنني أقطع بأن لفظ القدرة هنا لا يكون إلا بمعنى التضييق أو القضاء, وذلك لقيام القرينة على بطلان معنى الاقتدار والقهر هنا , وبيان ذلك: أن الذي ندين الله عز وجل به ونشهده عليه أن من جهل قدرة الله تعالى أو شك فيها أو تصور أن الله تعالى سبحانه يعجز عن جمع رفاته بعد موته, فلاشك لدينا في أنه يعبد إلها آخر غير الذي خلقه من قبل ولم يك شيئا مذكورا,وانه لا يؤمن بالله العظيم جملة ومن حيث الأصل .

أقـــول : إن هـــذا الكافر الخاسر الذي يظن مثل هذا الظن ويشك مثل هذا الشك , نحن لا نشك أنه يعـــبد إلهـــا آخـــر غير الذي خلق السماوات السبع و الأراضين وسخر الشمس والقمر والنجوم والكـــواكب والـــريح وينزل الغيث ويصرفه كيف يشاء , وخلق الإنسان من نطفة من ماء مهين , ومـــوجد الخلق ولم يكن مثله شيئا مذكورا ,والذي يبعث الخلق يوم الفصل من لدن آدم إلى قيام الساعة بنداء واحد وصيحة واحدة , فيخرجون من الأجداث بعد أن كانوا رمادا و رفات ضالة في الأرض , أليـــست هذه كلها لازمات بديهية للعلم بقدرة الله تعالى , فإن كان ثم من يشك في قدرة الله تعالى وما يؤول إليه هذا الفهم والتصور, فنبؤوني – يرحمكم الله – أي اله هذا العاجز الذي يعبده؟؟ وهل هناك كفر وشرك بالله أفحش من هذا .

وقلتم أنه قد غفر له , وأنه لم يحبط عمله به , والحق يقول : {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَـــبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الزمر65 , ويقول عز وجل { إِنَّ

اللّـــهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ... } النساء48 , فقلتم : بلى غفر الله له , مع زعمكم بأن ما فعله هو شرك وخرق للتوحيد.

وهــل هــذا الكافر الضال الذي ظن هذا الظن بالله إلا من الضالين الفاسقين الذين حكى الله تعالى عنهم : { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ .... } المائدة64 , وكذا من حكى الله سبحانه وتعالى عنهم : {180} لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ{181} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ{182} آل عمران , ورحم الله ابن الجوزي حين قال :" من جحد صفة القدرة كفر اتفاقا " , أقول : هذا هو الحق , ولا يصح غير ذلك مطلقا .

الثـانـي :

أما اعتراضهم بإنكار توافق معنى ــ القضاء والتضييق بنية أن يحرقوا جده ويذروا بعضه في البر وبعــضه في البحر , فهذا اعتراض غير فقيه ولا بصير , ولو نصحوا للعلم والفقه لعلموا أن في الشرائع التي كانت هناك صور مختلفة للتكفير عن السيئات والذنوب والتوبة إلى الله , قال تعالى عن بني إسرائيل : { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَـــى بَـــارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } البقرة54 .

روى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال الله تعالى أن توبـــتهم أن يقـــتل كل واحد منهم من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك المــوطن ... انظــر (ابن كثير/ ج 1 ص : 92), وقال تعالى : {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُـــسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً } النساء66 .

روى ابن أبي حاتم بسنده إلى شريح بن عبيد قال : لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيـــة {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ } أشار بيده إلى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وقال :(لوان الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل) انظر مجموعة الرسائل والمسائل (ج 3 ص: 14)

فظاهر الفهم الصحيح للنص أن هذا الرجل فعل ذلك ليكفر عما قصر قي جنب الله,وعمل الصالحات كما ورد في النص – لم يعمل حسنة قط – وفي رواية – يبت – بمعنى لم يدخر عملا صالحا يلقى بـــه الله توبة منه إلى الله وإنابة إليه فغفر الله له ما قصر من عمل الصالحات ,وليس كما فهم بعــض البـــسطاء مـــن أنه فعلها ليعجز الله عن جمع رفاته ويقهره عن بعثه يوم القيامة . فصح بطلان إنكارهم , وفساد اعتراضهم , ورد تمويههم .

الثـالـث:

مـا ذهـب إلـيه بعض أهل العلم من أن هذا الرجل قال هذا الكلام وهو في حالة غلب فيها عليه الدهش والخوف وشدة الفزع ,بحيث ذهب تيقضه وتدبر ما يقوله فصار في معنى الغافل و الذاهل والناسي وهذه الحالة لا يؤاخذ فيها ,وهو نحو قول القائل الآخر الذي غلب عليه الفرح حين وجد راحلـته: " أنـت عـبدي وأنا ربك ," فلم يكفر بذلك للدهش والغلب والسهو . قلت: وهذا نظر له وجاهـته, وحوادث الأعيان تحتمل مثل ذلك , وقد اعتبر هذا الوجه ابن تيمية في بعض كلامه ,– انظـر مجمـوعة الرسائل والمسائل (ج 3 ص : 14) . وأما من اعترض بأن الرجل قال كلاما مـرتبا لا يـتوافق مع حالة الدهش و الفزع , فهو اعتراض فاسد, وذلك لأن الفزع والدهش قد يـنطق ببعض العبارات والمعاني المرتبة في مفهم محدد في بعض أحيانه وهذا ليس بالمستحيل عادة لنقطع برده .

الرابـع:

وقـد ذهـب الـبعض إلى وجه آخر , وهو أن الرجل استعمل مجاز العرب في صورة مزج الشك باليقـين , وهو ما يسمى بتجاهل العارف ــ كقوله تعالى : {... وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } سبأ24 ، فصورته صورة الشك والمراد به اليقين ــ قلت وهذا عندي وجه لا يصح , لأنه الشاهد عليه في ذات الحالة , والصواب ما قدمناه ولله الحمد والمنة .

وقد قال بعض أصحابنا كلام طيبا في تعليقه على جملة التأويلات التي ساقها العلماء لهذا الحديث , ولا بـأس بسوق كلامه بنصه . قال :" فإن قيل هذا الرجل جهل صفة القدرة فعذر بجهله , قلنا : فمـا الذي دفع العلماء إذن لصرف الحديث عن ظاهره واللجوء إلى تأويله , إذا كان الأمر عندهم بهذه البساطة ؟؟ لا يكفي أن يقولوا مثلا : هو جاهل معذور بجهله , وما كانت بهم حاجة إلى هذه التأويلات , إلا أن يكون العلماء قد رأوا أن هذه القضية قضية عين لا تقوى على معارضة قواعد كلية ثابتة وأدلة مستفيضة سبق أن تقررت عنهم في صورة أصل كلي , مما أوجب أن تتنزل هذه القـضية على مقتضى هذا الأصل وخاصة أن الحديث نفسه يحتمل أوجها كثيرة غير هذا الوجه الذي يعارض الأصل الذي تقرر" "كتاب الجواب المفيد في حكم جاهل التوحيد " .

الشبهة الثالثة :

احتجوا بما ورد في الصحيح من حديث الربيع بنت مسعود , وفيه أن جارية كانت تنشد" وفينا نبي يعلـم مـا فـي غـد" فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تقولي هذا وارجعي إلى ما كنت تقولين).

قالوا : فمع قولها ما هو كفر إلا أن النبي لم يكفرها , وعذرها بجهلها . قلت : وهذا من أفسد ما يكون الاحتجاج , ولا أرى لهم وجها للاستدلال يصح في هذه الحادثة , وبيان ذلك من وجهين .

الأول:

عـدم ثـبوت شرط التكليف في الحادثة فلفظ الجارية عند العرب على منازل ثلاثة , الفتاة حديثة الـسن ,والمرأة الفتية هذه فيبطل الاحتجاج بالحديث حتى يثبت لنا ــ من حيث الأصل ــ إن هذه الجارية كانت امرأة بالغة مكلفة شرعا بأحكام الدين , لثبوت الاحتمال وقيامه بالحادثة.

الثاني:

أن هذه الجارية لم تنطق بما هو كفر مجرد , فكون النبي صلى الله عليه وسلم يعلم ما في غد , فهذا حق بما يطلعه الله عليه سبحانه ,قال تعالى : **{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً{26} إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً{27}** الجــن ، وإنما كره النبي صـلى الله عليه وسلم أن تطلق الجارية علم النبي بالغيب كما كره قول الخطيب :" ومن يعصهما فقد غوى " , ومثل هذا الكلام ليس كفرا وشركا يخرج عن الملة . والحمد لله على توفيقه.**

الشبهة الرابعة:

احتجوا بحديث ذات أنواط ونصه عند الترمذي (عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل خيبر ونحن حديثو عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عليها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها ذات أنواط ، فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهـم ذات أنواط ، فقال صلى الله عليه وسلم : الله اكبر ، كما قالت بنو إسرائيل اجعل لنا إلها كما لهم آلهة لتركبن سنن من كان قبلكم ...)

قالـوا : فمـع سـقوطهم في الشرك ، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم عذرهم لجهلهم بمعاني الربوبية والألوهية .

قلـت : وهـذا مـن افسد ما يكون الاستدلال به وأعجبه ، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على ضحالة الفهم والفقه لدى قائله وبيان ذلك من اوجه :

الأول:

قولكم أنهم أشركوا شركا ظاهرا بدليل قوله صلى الله عليه وسلم :(كما قالت بنو إسرائيل :اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) استدلال فاسد , لأن من له أدنى معرفة بلسان العرب , يعلم أن التشبيه يفيد اتفـاق المـشبه والمـشبه به في صفة واحدة أو أكثر, ولكن لا يفيد التطابق والسواء و إلا كان

المشبه هو ذاته المشبه به . فإن كان كذلك علمنا يقينا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجهلهم كبني إسرائيل في كل ما فعلوه: وإنما في جانب شابهوهم فيه ,إما في خطئهم بتشبههم بالكافرين, وإما في ذات الشرك الذي وقعوا فيه , وكلا الاحتمالين قائم بافتراض, فبطل الاستدلال من الحديث بقصر المراد على أحدهما دون الآخر إلا بقرينة زائدة من ذات النص أو من خارجه .

الثانــي :

القــرينة القطعية قائمة بذات النص على أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما عنفهم لخطئهم بطلب التــشبه بالكافرين لا لشركهم وخرقهم للتوحيد , وذلك أن طلب المؤمنين منه أن يجعل لهم شجرة يتبركون بها ليس فيه ما هو شرك بالله تعالى بلى لو أن النبي صلى الله عليه وسلم استجاب لهم وســأل الله تعالــى أن يجعل للمؤمنين شجرة يتبركون بها ويقدسونها لكان ذلك من شريعة الحق ولــيس مــن الــشرك فهذا أمر بين يعلمه كل ذي فقه ودين , ومن له مسكة عقل يعلم أن طلبهم شجرة يتبركون بها ليس كطلب بني إسرائيل من موسى أن يجعل لهم آلهة يعبدونها من دون الله , فمجــرد طلب المؤمين ذلك ليس شرك بالله تعالى كما هو واضح , فصح يقينا أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما عنفهم على تشبههم بالكافرين , لا على أنهم سقطوا في الشرك فعلا .

وإلــى هــذا البيان ذهب الشاطبي في الاعتصام و ابن تيمية واقتضاء الصراط المستقيم والمناوي والنووي كما ورد في تحفة لأحوذى .

الثالث :

مــع افتــراض صحة فهمكم من النص لما صلح لكم حجة . وذلك أن أبا واقد يقول ــ خرجنا مع رســول الله صلى الله عليه وسلم ونحن حديثو عهد بكفرــ أقول : هل كل الصحابة الذين خرجوا مــع النبي صلى الله عليه وسلم قبل خيبر كانوا حديثي عهد بكفر؟؟ ان قلتم :نعم , كذبتم وخالفتم الحــس والواقع وكفيتمونا مؤنة الجدل ,لأننا إنما نجادل مع العقلاء, ,وان قلتم بلى طائفة منهم , قلــنا : فــأين مــن ذات النص الدليل على أن هذه الطائفة لما كفرت بفعلها ــ إن صح فهمكم ــ عذرها النبي صلى الله عليه وسلم ولم يحكم بكفرها قبل أن يتوبوا ؟؟ فان قلتم : لم يأت في القصة أن الرســول صــلى الله عليه وسلم كفرهم , قلت لأنهم تابوا فور سماعهم تعنيف النبي صلى الله علــيه وســلم , فــان قلــتم لم يأت أن النبي صلى الله عليه وسلم استتابهم , قلت : ليس بشرط الاستتابة ما داموا تابوا من أنفسهم ,فان قلتم لم يذكر في الحادثة انهم تابوا , قلت ولم يذكر فيها انه عذرهم بالجهل كذلك ثم ليس معنى عدم ذكرها في الواقعة أنها لم تقع أصلا , وذلك لاحتمالية أن يكــون الراوي قد اكتفى من إكمالها , أو لشيء آخر يعلمه الله ولا نعلمه , وقد اعترض بمثل ذلك الامام أحمد ومن تابعه من الحنابلة وابن حزم على وجوب جلد الزاني المحصن قبل رجمه من

غيـــر اعتـــبار لورود نصوص حكت أن النبي صلى الله عليه وسلم رجم قوم ولم تذكر أنه جلدهم .أقـــول : هـــذا جدال نظري بافتراض صحة فهمكم من الحديث ,فكيف ولم يصح كما قدمنا ,فبطل احتجاجكم من الحادثة , والحمد الله على توفيقه .

الشبهة الخامسة :

احتجوا بسؤال عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم : مهما يكتم الناس يعلمه الله ... أقول قد ذكروا الكـــلام واســـتحيوا أن يذكروا استنباطهم الفاحش منه , وما ذاك إلا لان أي مؤمن بر تقي يرعى حـــرمات المؤمنـــين فـــضلا عن أمهاتهم ,فضلا عن بيت النبوة , كل ناصح لدينه يأبى أن ينسب لعائـــشة بـــنت أبي بكر حب رسول الله وسكنه أن تجهل ابسط معاني العقيدة , وهي أن الله يعلم السرو أخفى , خاب من نسب لها ذلك .

أيهـــا الـــناس :اتقـــوا الله فـــي دينكم , ولا يدفعنكم الانتصار للرأي المذهب إلى التطاول الفاحش والحجـــج الباطلة , مما نخشى عليكم أن تؤولوا إليه , ثم أنا سائلكم :إذا كانت عائشة الصديقة أم المؤمنين التي نشأت في بيت العقيدة , وتتلمذت على الداعية الأول من الصحابة أبى بكر والدها , ثم انتقلت إلى بيت النبوة , مهبط الوحي , ثم كانت أقرب نساء النبي إلى نفسه , ثم كانت أحفظ نساء النبي للسنة , ثم كانت أفقه نساء النبي وأمهات المؤمنين علما وأفصحهم بيانا .

أقـــول شـــارحا إذا كانت عائشة رضي الله عنها , وهذه صفتها ومكانتها تجهل أن الله تعالى يعلم السر وأخفى ,وهو ما يعرفه الطفل الحدث الذي لم يدر كيف يتنزه من بوله بعد, فكيف الظن بمن دونها ؟

أريد أن أقول : أن من نسب هذا التصور والشك إلى عائشة رضي الله عنها , فليعلم أن هذا قدح مباشـــر في بيان النبي صلى الله عليه وسلم بحيث كان أهل بيته يجهلون أبسط معاني دعوته ــ حاشـــا لله ــ بـــل الظـــن الـــصادق أن النبي بلغ فأتم البلاغ , وبين فأحكم البيان , وظن الصدق بالـــصديقة أم المؤمنين عائشة يرفعها بمفاوز بعيدة أن نرميها بمثل هذا الإفك وسوء الظن ,وكل عاقل منصف دين يعلم أن عائشة إما قالت هذا الكلام على سبيل التدبر والتأمل والتعجب من قدرة الله تعالـــى وإحاطة علمه إظهارا للخشية , و إما على وجه الاستنفار لحديث النبي صلى الله عليه وســـلم طلبا لمزيد علم وفقه , كقول العربي لصاحبه " أغشيت عكاظ بالأمس " وهو يعلم أنه ذهب إلـــيها , ولكنه يستنفره ليحدثه عن تفصيل ما حدث هناك–وللعلماء مذاهب أخرى في تأويل قول عائشة فليراجعها من شاء في الاختيارات العلمية .

الشبهة السادسة :

احـــتجوا بحديث عجيب المتن غريب المخرج واهي الإسناد ظاهر البطلان قالوا فيه أنه من الأدلة الواضـــحة علـــى صـــدق دعواهم , وأنا أقول , بل هو من الأدلة الواضحة على ضحالة علمهم ,

وشذوذ فهمهم للنصوص , وتجرؤ هم على الدين . أما الحديث فقد خرجه الحاكم وابن ماجة عن حذيفــة بن اليمان مرفوعا :(يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب , وليرى على كتاب الله عز وجل في ليلة لا تبقى في الأرض منه آية ويبقى طوائف من الناس , الشيخ الكبير والمرأة العجوز يقولــون "لا اله إلا الله " أدركنا آباءنا على هذه الكلمة , فنحن نقولها وهم لا يدرون ما صلاة ولا صــدقة ولا نسك ,فقال صلة بن زفر لحذيفة : ما تغني عنهم لا اله إلا الله وهم لا يدرون لا صلاة ولا صــيام ولا صدقة ولا نسك ؟ , فأعرض عنه حذيفة ثلاثا ثم قال : يا صلة تنجيهم من النار ..

قالوا : وهو صحيح على شرط مسلم , وجهلهم بكثير من أصول الدين التي كانت في القرآن الذي رفع أقوى دليل على العذر بالجهل .

أقول : إنني أجزم بأن هذا الذي نسبوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم موضوع مختلق ,لا أصل له يصح ,وما خرج قط من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم لمخالفته الصريحة لكتاب الله القاطع وما تواتــر مــن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أجمعت عليه الأمة سلفها وخلفها ونجمع جوابنا على هذا الاحتجاج في عدة وجوه :

أولا :

أن إســناده ضعيف لا تقوم بمثله حجة ,وقد خرجه الحاكم وابن ماجة من طريق أبي معاوية عن أبــي مالــك الأشجعي عن ربعي بن خراش عن حذيفة به مرفوعا , ومحل ضعفه في أبي معاوية وهــو محمــد بن حازم التميمي السعدي الكوفي الضرير . فأبو معاوية ليس ثقة بإطلاق , و إنما حديــثه يــصح فــي الأعمش , أما في غيره فحديثه مضطرب لا تقوم به الحجة فضلا عن كونه مدلــسا, يروي حديثه ولو معنعن , يقول الإمام أحمد رضي الله عنه :أبو معاوية الضرير في غير حــديث الأعمــش مــضطرب لا يحفظها حفظا جيدا, وقال ابن سعد:كان ثقة كثير الحديث يدلس . (انظر ابن حجر / تهذيب التهذيب) .

قلت : وهو هنا رواه عن أبي مالك الأشجعي , فصح ضعف الإسناد فضلا عن عنعنته وهو مدلس , فــسقط احــتجاجهم بالحديث من حيث الأصل والابتداء , بل إني لا أشك في أن هذا الحديث من حــيث الأصل والابتداء ,بل إني لا أشك في أن هذا الحديث مما اختلط فيه أبو معاوية واضطرب , كما سيأتي إن شاء الله .

الثــانــي:

أن هذا الحديث مخالف مخالفة ظاهرة لصريح قول الحق سبحانه وتعالى : **{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّــا لَــهُ لَحَافِظُونَ }** الحجر9 , أقول : وهذا الاعتقاد قد أجمعت الأمة عليه , وهو أن القرآن محفــوظ بحفظ الله من التبديل والتغيير والضياع و الإندراس حتى يرث الله الأرض ومن عليها ,

ولـــيعلم أن هــذا من بديهيات الشريعة , ويعلمه من المسلمين حتى صبيانهم , ولكنه غاب عن بعــض التجزئيين بسبب الهوى الذي يسيطر على القلوب والأفئدة , فزعموا أن القرآن يرفع ولا يبقى منه آية والناس بعد مكلفون بأحكام الشريعة .. وقد كان جائزا أن نلتمس لهم العذر لو أولوا الحديث–بافتراض صحته– أي تأويل بحيث لا يصادم القرآن كما فعل الألباني – سلسلة الأحاديث الصحيحة (ج 1 ص: 113) ــ وسيأتي كلامه ــ

ولكنهم أبوا إلا أن يصادموا كتاب الله وإجماع الأمة المقطوع به , فنسبوا الباطل إلى الشريعة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

خـــرج البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون , لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك).

قلت :ولا ريب أن الظهور بالحق لا يكون إلا بكتاب الله , و ما وافقت فيه السنة القرآن,

واتفــق علـــى صـــحته أهل الحديث , فأين رفع القرآن جملة ؟؟ , ولقد حاول الألباني الهرب من مـــصادمة الحـــديث ــ الذي زعم صحته ــ لظاهر كتاب الله وسنة نبيه و إجماع الأمة ,فقال في سلسلته, "وأما رفع القرآن الكريم في آخر الزمان إلا تمهيدا لإقامة الساعة على شرار الخلق الذين لا يعرفون شيئا من الإسلام البتة, حتى ولا توحيده" اهــ .

قلت هذا التأويل مع شدة غرابته وشذوذه, واضطراب الألباني في شرح الحديث بعد ذلك , إلا أنه أبطل في قولته تلك ما نسب إلى حذيفة في آخر الحديث , وكذلك أبطل احتجاج أصحاب العذر على مذهـــبهم , حـــيث أن الألبانـــي جزم بان القرآن لا يرفع إلا عن شرار الخلق تمهيدا لقيام الساعة علـــيهم , وقـــد وردت النصوص الكثيرة المبينة أن هؤلاء الذين تقوم عليهم الساعة يعودون إلى عـــبادة الأصـــنام كذي الخلصة , ولا يبقى في قلب امرئ منهم مثقال حبة من خردل من إيمان , فيـــصبح لازم تأويـــل الألبانـــي إن الحديث يتكلم عن المشركين الخاسرين وليس عن المعذورين بجهلهم كما يزعم المبطلون , ثم انظر إلى قول الألباني في وصف شرار الخلق وهم كفرة باتفاق , الذين لا يعرفون شيئا من الإسلام البتة حتى ولا توحيده .

فالألباني وهو من شيوخ العذر يحكم بكفرهم لجهلهم بالتوحيد, أو مع جهلهم للتوحيد, أقول : هذا لـــو صح كلامهم وكلام الألباني وتأويله و إلا فقضية حفظ القرآن مقطوع بها , ولا مخصص لها البـــتة ,بيوم أو ساعة أو بلحظة , ولا نعلم آية أو حديثا يصح ولا قولا لصاحب ولا تابع , وفقيه ولا إمـــام ولا محدث , ولا صاحب تفسير, زعم أن القرآن المجيد سيضيع من الأرض في ليلة من الزمان , بعد أن جزم القرآن بأنه محفوظ بحفظ الله .

الثـالث :

أن الجزء المرفوع من الحديث ليس فيه أدنى شبهة للاحتجاج على قضية العذر- لو صح الحديث – و إنما مدار احتجاجهم هو اجتهاد حذيفة في جوابه على صلة بأنهم ناجون من النار , والذي نــدين الله تعالــى به أن قول حذيفة المجرد لا يكون حجة ملزمة في دين الله إلا أن يثبت انه قاله بالتوقيف من صاحب الشرع ,فضلا عن أن نعارض به النصوص الشرعية التي قدمناها , وكم من مرة يفتي فيها صحابي مخطئ في اجتهاده وهذا أمر مشهور لا ينكر, وقد تقصى بن حزم حوادث عديدة لذلك في كتابه ــ الأحكام في أصول الأحكام (ج 1 ص 148) واكثر منها في المحلى (ج 2 ص 10)

فليــراجعها مــن شاء , بل كم من مرة يصرحون بأن رأيهم يقبل الصحة والخطأ , ورحم الله بن عــباس حين قال : أقول لكم قال الله وقال رسول الله وتقولون قال أبو بكر وقال عمر , يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء وكل من هو دون النبي صلى الله عليه وسلم يؤخذ من قوله ويرد . وجمــاع القــول هــنا , أن رأي الــصحابي المجــرد ليس حجة ملزمة في دين الله تعارض بها النصوص, ففسد احتجاجهم بالمرة .

الرابع:

نناقشكم في اللفظة التي وردت في الحديث لا له إلا لله أدركنا آباءنا على هذه الكلمة فنحن نقولها , وهم لا يدرون ما صلاة... فأقول : ظاهر هذا الحديث يوحي بأنهم يرددون ما سمعوه من آبائهم دونمــا فهم منهم ولا دراية بمعناها , فنسألكم : هل قصد النبي صلى الله عليه وسلم ــ لو صح الحديث ــ معرفتهم بالتوحيد أم مجرد التلفظ بالكلمة ؟ فإن قلتم : قصد بها معرفتهم بالتوحيد دون الــشرائع , قلــنا لكم:فقد وافقتمونا على مذهبنا وسقط احتجاجكم لأننا نتكلم من جهل التوحيد لا الشرائع , وإن قلتم قصد بها مجرد التلفظ بالكلمة , قلنا: وان كانوا كاذبين فيها أو شاكين ؟ فإن قلت : وان كانوا كاذبين ، أتيتم بعظيمة في الدين ، وتفوقتم في البدعة على اعتى عتاة المرجئة ، وخالفتم الشريعة جملة ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : (لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة) (رواه مــسلم) والنصوص المستفيضة تشترط للكلمة الصدق فيها ، (من قال لا اله إلا الله صدقا من قلبه ..) وفي لفظ :(مستيقنا بها قلبه), وذم الله قوما بأنهم : {... يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِــي قُلُوبِهِمْ ... } آل عمران167 , وسماهم منافقين , ونعت النبي صلى الله عليه وسلم رجلا تعذبه الملائكة في قبره يقول : (أدركت الناس يقولون كلمة فكنت أقولها) وسماه النبي منافقا , وبالجملــة : فهذا مما لا نزاع عليه في الدين , ولا يكابر فيه إلا مارق أفاك أثيم .فلزومكم القول بــأن شرط الصدق مطلوب , فإن كان كذلك أسلّمتم معنا أن النبي صلى الله عليه وسلم ــ لو صح الحديث ــ لم يقصد مجرد الكلمة وإنما قصدها بضوابطها الشرعية التي تفهم من النصوص أخرى بالجمع بين أطراف الأدلة , وليس بانتزاع نص وفهمه بمجرد الهوى والتلذذ, فإن فعلنا علمنا أن

النبي صلى الله عليه وسلم قصد معنى التوحيد لو صح الحديث لا الكلمة , وهذا ما دل عليه ظاهر الحديث لأنه قال :(وما يدرون ما صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا نسك , فعدد شرائع الإسلام , ولو كانوا يجهلون التوحيد وأسمه لذكرها بطريق الأولى بداهة ...) .

ثم نسألكم :هل يقولون لا اله إلا الله ؟ وينكرون بعثة محمد صلى الله عليه وسلم , أو يقولون أن عيسى ابن الله , أو أن الله هو علي بن أبي طالب , أو فلان بعينه؟؟؟ فإن قلتم بذلك أشهدتم الخلق علـــى فـــساد عقولكم وتجرؤكم على الشريعة ,وان قلتم بغيره ونفيتموه سألناكم :أ بدليل من ذات الحـــديث نفيـــتم ذلـــك أم بدليل من غيره ؟؟ فإن قلتم من ذات الحديث كذبتم وطالبناكم به , ولن تستطيعوه , وان قلتم من خارج الحديث , لزمكم أن الحديث لا يفهم بمجردة وإنما يفهم على ضوء النصوص الأخرى التي تتحدث في القضية.

أريد أن أقول : أن ما فعله هؤلاء القوم , إنما هو سبيل أهل البدع في كل حين , وهو انتزاع نص مـــن الشريعة , لو صح الحديث, ومحاولة فهمه بعيدا عن النصوص الأخرى في موضوعه والتي توضـــح مبهمه وتخصص عمومه وتقيد مطلقه وتفصل مجمله , وهذا من بديهيات أصول الفقه, وبالجملـــة فقـــد ثـــبت بطلان الحديث سندا ومتنا وثبت فساد احتجاجهم لو صح والحمد لله على توفيقه.

الشبهة السابعة:

احـــتجوا بحادثـــة أخرى منسوبة إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه , انه لما دخل على رسول الله صلى عليه وسلم سجد له , فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :(انه لا ينبغي السجود لغير الله , ولو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) قالوا : خرجه بن خزيمة وقال على شرط الصحيح .

قلت : هذا تدليس فاحش, وتمويه مكشوف بإذن الله , فالحديث خرجه أحمد والترمذي وبن ماجه وبن طرق عديدة ,عن معاذ بن جبل نفسه , وسراقة بن مالك , وعائشة , وبن عباس , وطلق بن علـــي , وأســـامة بن زيد , وأنس بن مالك , وعبد الله بن عمر, وأبي هريرة , رضي الله عنهم أجمعين ,

كلهم رووه بلفظ :(لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) ولم يذكروا فـــي روايـــاتهم قصة السجود , وهذه الطرق منها الصحيح ومنها الضعيف ,وبعضها على شرط الصحيح , كما قال بن خزيمة أما حادثة سجود معاذ للنبي صلى الله عليه وسلم فهي حادثة ضعيفة الإسناد,ومنكرة ,وليست على شرط الصحيح كما زعم القوم أو ألبس عليهم .

وبيان ذلك ,أن هذه الزيادة انفرد بها ـــ أزهر بن مروان عن القاسم الشيباني عن عبد الله بن أبي أوفي به وذكره : وأزهر هذا هو أزهر بن مراون الرقاشي النوار مولى بني هاشم ,قال ابن حبان

: فيه: مستقيم الحديث , وابن حبان يوثق المجاهيل على قاعدته , فلا يعتبر إذا انفرد, ولا نعلم أحــدا مــن أئمة الجرح وثقه , فهو ليس بالثقة الذي تطمئن النفس لحديثه, والمهم هنا أن أزهر ليس من رجال الصحيح لا في الأصل ولا في المتابعات ,بل لم يخرج له من أصحاب الكتب الستة سوى الترمذي وابن ماجه .

فانكشف عوار القوم وصح أن الذي صححه ابن خزيمة على شرط الصحيح إنما هو أصل الحديث كمــا تقــدم , ولــيس قصة السجود المنكرة . هذا مع أن العلة الحقيقية لهذه الرواية في القاسم الــشيباني ,وهــو القاسم بن عوف الشيباني البكري الكوفي , وهو ضعيف متفق على ضعفه قال شعبة ضعيف الحديث وترك حديثه , وقال أبو حاتم : هو مضطرب الحديث ومحله عندي الصدق , قلت : أي لا يألو عليه كذبا ولكنه ضعيف الحديث , وقال ابن عدي : هو ممن يكتب حديثه , قلت : ومعلــوم أن هــذه الصيغة للضعفاء بمعنى لا يحتج به إلا في المتابعات , وقال النسائي: القاسم ضــعيف الحديث –راجع تهذيب التهذيب لابن حجر , والرفع والتكميل للكنوي ــ قلت : فثبت أن هــذه الــزيادة ضــعيفة بل تكون منكرة كما يقتضي ذلك علم المصطلح , لمخالفة ضعيف للثقات وانفراده عنهم غير أن أبا داود خرج قصة السجود هذه ولكنه ذكرها عن قيس بن سعد بن عبادة , بأنــه هو الذي سجد للنبي صلى الله عليه وسلم وليس معاذا , فأتى بإشكال زائد غير أن إسناد هذه الرواية لا يقل ضعفا سابقه ,فقد تفرد بها شريك بن عبد القاضي وهو متفق على ضعفه كما هو معلوم , فسقط دليلهم من حيث الأصل والابتداء .

أقــول: ولــو صــح الحديث لما صلحت لكم به حجة لأن السجود للأنبياء لا يكون خرقا للتوحيد بمجــرده إلا إذا صاحبه اعتقاد , ولقد كان جائزا في شرع من قبلنا أن يسجد الناس لبعضهم على سبيل التحية والتعظيم ، وهو ما صرح به معاذ فيما نسب إليه في هذه القصة .

وفــي كــتاب الله شــاهد على ذلك قال تعالى في قصة يوسف عليه السلام : **{ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَــرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَــذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً .... }** يوسف100.

ولــو كان نقضا للتوحيد ابتداء لأشرك يعقوب عليه السلام بنص قولهم –وحاشاه ذلك – لأن ملة الشرك واحدة , وتحريمه ثابت في الشرائع كلها, قال تعالى : **{ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَــبْلِكَ لَــئِنْ أَشْــرَكْتَ لَيَحْــبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ{65} بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ{66}** الزمر ، يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره ــ (ج 2 / 491): "وقد كان هذا سائغا في شرائعهم– أي السجود ــ إذا سلموا على الكبير يسجدون له , ولم يزل هذا جائزا من لدن آدم إلــى شــريعة عيسى عليه السلام فحرم هذا في هذه الملة , وجعل السجود مختصا بجناب الرب ســبحانه وتعالى , هذا مضمون قول قتادة وغيره " ا هــ . فثبت بطلان استدلالهم من الحديث لو صح ,فكيف ولم يصح ؟؟, ولله الحمد والمنة .

الشبهة الثامنة :

احتجوا بحديث الأربعة الذين يحتجون عند الله تعالى يوم القيامة , ويختبرون في الرصات, وهو حـديث غـريبه طال التنازع فيه بين أهل الحديث ,و الحديث خرجه الإمام أحمد في مسنده ,وأبو داود الطيالسي , وأبو يعلى الموصلي , وأبو بكر البزار, ومحمد بن يحي الترهلي , من طرق عن رسول الله صلى عليه وسلم أنه قال :(أربعة يحتجون يوم القيامة ,رجل أصم لا يسمع شيئا ورجل أحمـق ,ورجـل هرم , ورجل مات في فترة , فأما الأصم فيقول : رب قد جاء الإسلام ولا نسمع شيئا , وأما الأحمق فيقول رب جاء الإسلام والصبيان يقذفوني بالحجر , وأما الهرم فيقول رب ما أتاني لك رسول, فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه, فيرسل إليهم أن ادخلوا النار, فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكنت عليهم بردا وسلاما- وفي لفظ فمن دخلها كانت عليه بردا وسلاما؛ومن لم يدخلها يسحب إليها) .

أولا :

الحـديث في ثبوته نزاع طويل , وفي صحته خلاف مشهور بين العلماء , وقد نقل ابن كثير عن البيهقـي أنـه صـرح بصحته في كتاب الاعتقاد وكذلك احتج به ابن حزم في كتابه " الأحكام في أصول الأحكام " فهو صحيح على قاعدته ومن جهة أخرى نقل القرطبي التصريح بضعف الحديث عن ابن عطية , بل صرح القرطبي نفسه بضعف الحديث وقال:"لا يصح " (تفسير القرطبي / ج 1 ص : 232) ، ونقـل ابن كثير عن الحافظ ابن عبد البر تصريه بضعف الحديث , وقال ابن عبد البر :" أحاديث هذا الباب ليست قوية ولا تقوم بها حجة ,وأهل العلم ينكرونها , لأن الآخرة ليست دار عمـل ولا ابتلاء , وكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين , والله لا يكلف نفسا إلا وسعها "(تفسيرابن كثير ج 3 ص : 31) .

قلـت : فـإن ذلـك ,لزم كل منصف التوقف عن الاحتجاج بالحديث خاصة عند مقابلة النصوص ببعضها , بيد أن النظر والتأمل,يعطي ترجيح قول ابن عبد البر لمخالفة الحديث معطيات الشريعة من أن الآخرة ليست دار عمل ولا ابتلاء , وإن كان مدار النزاع فيه على ثبوت إسناده فله طرق كـل فيها نظر, والخلاف قائم بين العلماء , هل ترقى إلى درجة الاحتجاج أم لا تقوم بها حجة,كما قدمنا فالنفس لا تطمئن لمثله .

ثـانيا:

الحديث بلفظه خارج محل النزاع الأصلي , وهو حكم وصفة من تلبس بالشرك ونقض التوحيد في الحياة الدنيا, هل يكون حكمه كافرا أم يمتنع ذلك لعارض الجهل , والحديث لا يتكلم عن ذلك البتة , وإنمـا يـتحدث عن قضية عذاب الله له أو عفوه وهي ــ كما قدمنا مرارا ــ قضية أخرى غير الأولى ــ فحذار من الخلط والتلبس بين مواضع الكلم , ومواطن الاحتجاج .

ثـالثـا:

حتـــى في قضية العذاب أو العفو, فالحديث لا يصح لهم حجة على دعواهم فيها وذلك أن كل ذي علم وفهم يعلم أن الحديث لم يتعرض قط لمناط النزاع الحقيقي: من خرق التوحيد وتلبس بالشرك الظاهـــر و إنمـــا الحـــديث يتكلم عن رجل مات في فترة , وقد سبق تفصيل الكلام في أهل الفترة وانهـــم أقسام , منهم من رأى قومه على ما هم فيه من الشرك وعبادة غير الله فاجتنبها وتبرأ مـــنها ولكنه جهل ما يتقرب به إلى الله من الأعمال الصالحة , والشرائع لانطماس آثار الرسالات فهذا من يعذره الله يوم القيامة ,ومنهم من تابع ما عليه قومه من الشرك واستنام لذلك وعبد غير الله , فهذا غير معذور كما صرح بذلك بن القيم والشاطبي .

أقول : ولا حجة عندي في نظر بن القيم والشاطبي – رحمهما الله و إنما مدار الكلام والحجة هنا أن أهـــل الفترة ليسوا كلهم قد تلبسوا بالشرك ونقضوا التوحيد وعبدوا غير الله , فحتى يثبت لكم حجـــة مـــن هـــذا الحديث أرونا منه ما يدل على أن هذا الرجل الذي مات في زمن الفترة ويدلي بالحجة عند الله يوم القيامة كان مشركا بالله ناقضا للتوحيد عابدا غير الله تعالى , أما قبل ذلك فلا دلـــيل لكـــم ولا حجة , هذا لو صح الحديث فكيف ولم تثبت صحته بإطلاق فضلا عن خروجه عن صلب محل الخلاف والنزاع كما قدمنا , والحمد لله على توفيقه .

الشبهة التاسـعة:

احـــتجوا بقـــول الله ســـبحانه وتعالى من سورة النساء **{وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً }** النساء115 ، وذلـــك قول الحق سبحانه وتعالى في سورة محمد **{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ }** محمد25 .

قالوا : فقد شرط الله تعالى لثبوت العقاب عليهم أن يكون فعلهم (من بعد ما تبين لهم الهدى)

قلـــت : هذه الآية مع أنها تتكلم في غير موضع النزاع أصلا, وهو حكم من خرق التوحيد وتلبس بالشرك وعبد غير الله تعالى في الدنيا , بغض النظر عن كونه معذبا يوم القيامة بكفره أو معذورا بجهلـــه , بالرغم من ذلك فهذه الآية لا تصلح لهم حجة على دعواهم أبدا بأنه لا يعذب من كانت صـــفته " المـــرتد" ومن شاق الرسول بعد ما تبين وعلم ذلك إنما تتحدث الآيتان عن حالة واحدة وصفة معينة , من حالات المعذبين و أهل النار, لكنهما لم تنفيا وجود غيرهما أصلا .

أمـــا آيـــة النساء فهي تتحدث عمن شاق الرسول بعد العلم وتبين الحق ونحن نعلم يقينا أن من الكافرين المعذبين من يموت شاكا في البعث وفي الرسالة وقضايا الإيمان الأخرى غير متبين للحق فـــيها , ولا عـــالم بها بنص قوله تعالى : **{ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ**

بِالْآخِـــرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ... } سبأ21 ، وقوله : {أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَـــقُّ كَمَـــنْ هُوَ أَعْمَى ...} الرعد19 , وقوله { الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ ....} التوبة97 , وقوله تعالى : { .... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ } الأنبياء24 , وقوله: { يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُـــشْفِقُونَ مِـــنْهَا وَيَعْلَمُـــونَ أَنَّهَـــا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ } الشورى18 .

وغير ذلك من النصوص الكثيرة المستفيضة , التي تجزم بأن من الكافرين المعذبين من هو شاك في قضايا التوحيد, غير فاهم لها ولا عالم بها, وبإذن الله سنزيد هذه النقطة بيانا في الفصل القادم عند الحديث عن الحجة والبينة , وصفتها وحدها والشرط فيها وإقامتها ومن يقوم بها حيث خلط الناس في ذلك كثيرا .

أمـــا آية سورة محمد فهي تتحدث أيضا عن حالة واحدة من حالات الكافرين ونوع من أنواعهم , وهـــو من ارتد من بعد إيمانه وليس كل الكافرين مرتدين كفرا بعد إيمان, ومن زعم ذلك فقد كابر وبغى فمن المقطوع به أن من الكافرين المعذبين من لم يدخل الإسلام ابتداء بل جماهيرهم كذلك , وجمـــاع القول في هاتين الآيتين , أنهما تتحدثان عن حالة واحدة من حالات الكافرين المعذبين , وليس معنى ذلك أفهما تنفيان حكم من هم بغير هذه الصفة , اللهم إلا أن تأتي قرينة قطعية تجزم بنفي هذا العذاب عمن هم بغير هذا التقييد للوصف ,هذا بيان واضح في الآيتين .

والحقيقة أن هذا النمط من الاحتجاج وهو ما يعرف بمفهوم المخالفة أو دليل الخطاب , كما يسميه بعض الأصوليين , وهو على التحقيق والصواب لا تقوم به الحجة بمجرده , اللهم أن تحتف به أو بغيـــره من القرائن القطعية التي تفيد إثبات ما ذهب إليه المحتج به ونفي ما عاداه ,فحين نسمع قـــول الحق سبحانه وتعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } آل عمران130 .

لم يكن من الفقه والعلم , أن يقول أحد من الناس بأن ما كان من الربا بغير هذا التقييد في صفته , فهـــو غير منهي عنه , و إنما الحق والصواب هو القول بأن هذه الآية إنما استدللنا منها على تحريم صفة واحدة وحالة واحدة من حالات أكل الربا , وهي أكله أضعافا مضاعفة ,ولكن لا ينفي هذا أن يكون هناك ما هو محرم من الربا وهو بغير هذا التقييد في الوصف , يعلم ذلك بالنصوص الآخـــرة , لقـــوله تعالـــى: { يَـــا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِـــينَ } البقـــرة278 ، وغيـــرها من الآيات التي تتحدث في ذات الموضوع . ومثل ذلك في مفهـــوم آيات عديدة كقوله تعالى : { وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِـــندَ رَبِّـــهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } المؤمنون117 ، فلا يفهم من ذلك أن هنالك دعوى للندية

بالدليل والبرهان, ومثل ذلك في قول الحق سبحانه وتعالى : {....ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ .... } البقرة61 ، لا يفهم من ذلك أن هناك قتلا للنبيين بالحق في المقابل ,وكذا في قوله تعالى: { وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ..... } لقمان15 ، لا يفهم من ذلك أن هناك شركا بعلم أو يعلمه, ومثل قوله تعالى : { وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } النحل8 ، لا يفهم من ذلك نفي شرعية الاستعمال بغير هذا التقييد في الصفة إلا بأدلة أخرى من خارج هذا النص، هذا ومن أراد استزادة فليراجع ما كتبه أبو محمد بن حزم الظاهري في كتابه ــ الأحكام في أصول الأحكام ج 7 ص 887 ــ فقد أبدع في الكلام على دليل الخطاب .

وبالجملة فدليل الخطاب لا يفيد حجة ملزمة بمجرده , وإنما يفيد فحسب إثبات الحكم الخاص بالحالة التي قيدها من غير إثبات ولا نفي لغيرها من الحالات , وفي هاتين الآيتين هما مدار النقاش هنا, يتحدث الله سبحانه عن حالة واحدة من حالات الكفار المعذبين أو حالتين , وهما المرتد الذي كفر بعد إيمانه , ومن شاق الرسول بعد العلم والتبيان , فلزم إثبات الحكم الذي قررته الآيتان لمناط الحكم الذي قيدته ,من غير إثبات ولا نفي لغيرهما اللهم إلا أن يأتينا المخالف بدليل آخر يفيد جزم ما ذهب إليه , أما قبل ذلك فلا حجة له وبذلك يسقط استدلالهم من الآيتين وبالله التوفيق .

الشبهة العاشرة

احتجوا بقول الله سبحانه وتعالى حاكيا مقولة الحواريين لعيسى بن مريم عليه السلام : { إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } المائدة112 ، قالوا: فهذا دليل على أن الحواريين شكوا في أن الله قادرا ولم يكفروا بهذا الشك , مع أنه كفر لأن الله تعالى عذرهم بجهلهم، قلت : لقد عز الحياء والله وكلامهم هذا من أوضح البراهين على سيطرة الهوى على منهاجهم في الاستدلال , وهذا الذي نسبوه للحواريين واحتجوا به هو من أفسد ما يكون الاحتجاج وهو ظاهر البطلان لذي عقل وقلب,و بداية أعجب كيف يجهل الحواريون وهم خلصاء رسول عيسى بن مريم عليه السلام وبطانته وأئمة الهدى والعلم في أمته , أقول : كيف ينسب إليهم جهل أبسط معنى العقيدة وأعظم صفات الباري سبحانه وهي القدرة وقد قدمنا أن صفة القدرة بالذات لا ينكرها أو يشك فيها إلا كافر سفيه العقل . ولا أدري هل كان الحواريون يؤمنون بأن الله تعالى الذي يعبدونه ويؤمنون به هو الذي خلق رسولهم عيسى ــ عليه السلام ــ بكلمة منه , وقال له كن فكان ؟ أم إلهه اله آخر يعجز أن ينزل من السماء مائدة , سبحانك هذا بهتان عظيم .

وهل كانوا يعبدون الذي خلق السماوات بغير عمد وسخر فيها الشمس والقمر والنجوم السيارة , والأرض وما بث فيها من آيات ودلائل تشهد أدناها بعظمة خالقها وقدرته وجبروته, والذي خلقهم ولم يكونوا شيئا مذكورا , ثم يميتهم ثم يحييهم و يبعثهم بصيحة واحدة , وهو الذي يرزق الطير والدواب , وكل نفس منفوشة , بل إني أعجب كيف آمنوا بأن الله قادر على أن ينزل الملائكة من السماء بالروح من أمره على من يشاء من عباده , ومنهم عيسى ـ عليه السلام ـ رسولهم الذي آمنوا به وبما يتنزل عليه , ثم هم يشكون في أن الله قادرا على أن ينزل مع الملائكة مائدة على الحواريين ؟ اللهم إليك نشكو فساد العقول والألباب , وسيطرة الهوى و عماية الرأي , ولا حول ولا قوة إلا بالله ...

ورحم الله القرطبي حيث يقول عند تفسير هذه الآية في كتابه جامع أحكام القرآن(ج 7 ص 364)
" إن الحواريين خلصاء الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم ,كما قال تعالى: **{ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ}**, ومعلوم أن أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا بمعرفة الله تعالى وما يجب له وما يجوز وما يستحيل عليه وان يبلغوا ذلك أممهم , فكيف يخفى ذلك على باطنهم , واختص بهم حتى يجهلوا قدرة الله تعالى " أهـ

أقول : ومن ثم فقد أجمع أهل التفسير على أن قول الحواريين لم يخرج مخرج الشك في قدرة الله تعالى , وقد خرجوا الآية على مخارج شتى , غالبها راجع على حمل الآية على إحدى رواياتها . فالآية وردت بروايتين , الأولى بلفظ (هل تستطيع ربك) بالتاء وهي قراءة الكسائي , وأيضا قراءة علي بن أبي طالب وعائشة ومعاذ وبن عباس وجماعة من الصحابة وسعيد بن جبير ومجاهد من التابعين (انظر تفسير بن جرير الطبري/ج 11 ص 218).والقرطبي (ج 6 ص 364) والثانية بلفظ (هل يستطيع ربك) بالياء وكلاهما حق , وكلاهم من عند الله فأما من قرأها بقراءة الكسائي فقد ذهب الإشكال واستقام المعنى الظاهر للآية , ويصبح معناها : هل تستطيع سؤال ربك , أو : هل يجيبك الله إن سألته , و أما من قرأها بالثانية فقد حمل معناها على ظاهر القراءة الأولى وبما لا يتعارض معها , وحقوقها حسب مقتضيات لغة العرب المتنزل بها القرآن , فكان لهم تأويلات عدة , مجمعة كلها على تنزيه الحواريين وتبرئتهم من نسبة الشك إلى قدرة الله إليهم ومن أراد استزادة مراجعة ما ذكره العلماء فيها , فليراجع القرطبي عند تفسير سورة المائدة , وكذا الطبري ـ مجمع البيان .

أقول : وكل من له مسكة عقل ومسحة حياء ليشهد ببطلان ما ذهب إليه البعض , وشذ به من نسبة الشك في قدرة الباري للحواريين لكي يحتج بها على دعواه الفاسدة , بالله التوفيق ، هذا كل ما شغبوا به في المسألة ، لا نعلم لهم حجة غير ما قدمنا ه , وقد تبين لكل ذي بصيرة أنها احتجاجات فاسدة , لدورانها في منهج فاسد في النظر, فإما أنها استدلالات في غير موطن النزاع , و إما أنها سوء فهم لدلالات النصوص , و إما أنها تأويلات فاسدة للنصوص البينة , وإما أنها

احـــتجاج بحديث ضعيف لا تقوم بمثله حجة , هذا فضلا عما سوف يأتي بإذن الله من بيان شامل مفــصل ــ فــي بحــث ملحــق ــ مــن صورة على التقليد المقنع , مع أنهم كانوا يثيرون الدنيا ويقعــدونها ويقــيمونها ثورة على التقليد وأهله ودعاته : وجعلوا هجومهم على المقلدة شغلهم الــشاغل , وبرهنوا بالكثير المستفيض من دلائل الكتاب والسنة وما ورد عن السلف , من إثبات لفساد التقليد وبطلانه وتسفيه من قال به . فإذا ما صار الأمر هوى عندهم , رأيتهم قلدوا الرجال بغيــر دليل واحتجوا عليك بكلام الناس المجرد , والرأي المحض , فإذا ما أتيتهم بالدليل من عند الله , قالوا لك , خالفت قول فلان,وما فهم مثل فهمك , ولا نعلم لك سلفا في هذا , وركبوا الصعب والذلــول وطعــنوك بكل طاعن , ورموك بكل بهتان , فتارة أنت مبتدع جهول وتارة أنت خارجي أزارقــي , وتارة معتزلي , وتارة مرتد عن نهج السلف وهذا هو شأن المقلدة الدائم , وسلاحهم المشهر دوما في وجه مخالفيهم .

ويا ليتهم صدقوا فيما نسبوه لنا , فلقد وجدتنا ما خرجنا عن سلف أمتنا الصالح قيد شعرة , وما حــدنا عــن مــنهجهم فــي قول أو فعل أو اعتقاد , بل كلما ازددنا معرفة بمنهج السلف ومدى انتصارهم لكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لا يقدمون عليهما غيرهما , بل امسك جلهم عن الفتوى بمحض الرأي حتى ولو لم يوجد لها عنده دليل في الكتاب والسنة .

أقــول : كلمـــا ازددنا معرفة بهم , ازددنا تيقنا واطمئنانا لما نحن عليه من الحق والهدى , وفي المقابل , ازددنا يقينا بفساد ما عليه مخالفونا , وبطلانه .

هــذا وسوف نبين بإذن الله كيف يأخذون ببعض كلام فقيه من الفقهاء في معرض كلامه عما قاله في ذات الموضوع في غير هذا الموضع مما يوضح فهمه , ويزيل الإشكال في كلامه , بل سنرى بعين اليقين أن الهوى والتلذذ هو ضابط القوم , ليس في الأخذ من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله علــيه وسلم فحسبه, بل أيضا في متناول كلام الأمة وتفضيل قولهم بعضهم على بعض بغير دليل ولا ســلطان مبين ,كما احتجوا بقول ابن حزم على ابن عبد الوهاب في وصف الحجة كما سيأتي إن شـــاء الله , فـــإذا ما وافقهم قول فقيه استروجوه و طاروا به كل مطير, ونصبوه إماما لأهل الــسنة ورأسا في العلم والفقه , وإذا ما خالفهم قوله أو قول غيره مخالفة ظاهرة ,عملوا عظيم جهـــدهم وفكرهم ليلووا كلامه ليا , هذا إن لم يعرضوا عنه ابتداء , فإن استعصى عليهم التأويل قالوا : هي زلة عالم ,ولكل عالم زلة ابتداء أي وربي هو صلب مذهب المقلدة حذو القذة بالقذة , فـــلا حـــول ولا قـــوة إلا بالله, ولو أنهم نصحوا للدين والعلم لعلموا أن ذلك القول الذي قالوه في الــصنعاني (راجـــع تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد للصنعاني) ص 35 ـــــ رفض الصنعاني القـــول بعذر المشرك بجهله وجعله كافرا أصليا لأنه صار في حكم من لم يدخل الإسلام ابتداء , و هو قاعدة مطردة في تناول كلام العلماء فلكل عالم زلة أو زلات , ولكل جواد كبوة أو كبوات .

فلما صح ذلك , علمنا أن الحق والصدق في أن الحجة الملزمة لكل مسلم , هي كتاب الله المجيد, وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم , و إجماع الأمة المقطوع به , لا ما يزعمه كل من أعيته النصوص أما أقوال الرجال , فليست بالحجة الملزمة في دين الله , لجواز الصحة والخطأ عليها , وكل من دون النبي صلى الله عليه وسلم يؤخذ من قوله ويرد, وما ذاك إلا وفق ما جاء به كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم .

وكذلك فإن خلاف الناس ليس بحجة حتى يعترض علينا أحدهم بأن القضية فيها خلاف بين الفقهاء , وفي أي مسألة كانت , فلا حجة في خلاف الناس فيها , ومن رمى بمثل ذلك الاعتراض إما فاسد لإبطال شرع الله وحكمه و إفساد دين الناس عليهم , كلما قصد تزوير الشريعة حين يسأل في قضية ما يقول: " فيها خلاف , وهي مشكلة ,أو للعلماء فيها أقاويل , وفي الدين سعة فمن أخذ بهذا فخير ومن أخذ بهذا فحسن" و إما إنه سفيه مغفل ولا يفقه من الحق شيئا .

وان اختلف الناس في أمر وجب رد النزاع لكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لصريح قوله تعالى : {.... فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } النساء59 .

وذلك أن أحدهم ربما فاته حديث في المسألة وصح حكمها عند غيره, أو ضعف حديث لإسناد عنده بينما صح عند غيره بإسناد آخر أو غابت عنه قاعدة أصولية له أو لغيره , أو وقف على معنى للفظ قالت به العرب وخفي على غيره , أو غير ذلك مما يقدره الله تعالى في ذلك , فضلا عن أن أمر الفقه والفهم ورجاحة العقل هو مما قسمه الله تعالى بين العباد كما قسم الأرزاق والأعمار , فلا يصح اعتبار الناس في خلافهم حجة للتنقل من شرع الله . هذا هو دين الحق , وقول الصدق , وأما غير ذلك فهو إفساد للدين جملة , وفتحا لباب الهوى على مصراعيه أمام كل كاذب وافاك , ومن تأمل حال الناس اليوم ومصاب هذا الدين لشهد بصدق ما نقول من غير كثير نظر أو تأمل , والله تعالى نسأل العصمة والسلامة , ونسأله سبحانه الهدى والثبات عليه .

وقبل أن اختم هذا أود التنبيه على أن كلامنا في هذا الباب إنما كان على تأثير عارض الجهل على التوحيد بوجه العموم سواء قبل الرسالة أم بعدها وسواء مكن العلم بالحجة الرسالية ام لم يمكن , كحكم عام في حركة الناس في واقع حال الدنيا ,أما مسألة طرح قضية العذر بالجهل للعمل في واقع مجتمعات اليوم فهو أمر مقطوع ببطلانه وفساده في هذا الزمان وهذه الأحوال بوجه الخصوص والتحديد, وهو ما سوف نفصله بإذن الله ونقطع فيه ألسنة المخالف في الباب الثاني , عند الحديث عن الحجة وحدها والشرط فيها ومن يقوم بها , وما سيتبع ذلك من فروع , حيث سيسقط من ساحة الاحتجاج كثير من النصوص التي احتجوا بها في القضية كما وردت في الباب الأول كما نتكلم عن أهل الفترة , ومن يحاسبون على اقتراف مثل هذه الجرائم من بعد البيان يا لوحي والرسالة .

وفـــي هذا الباب ــ بإذن الله ــ نتكلم عن قضية أخرى من قضايا العذر بالجهل وحالة محددة من حالاتها وهي مرتبطة بشكل واضح بالمجتمعات , القائمة اليوم والمنتسب أهلها إلى الإسلام , وأود أن أنبه أن في هذا الباب ستتغير دفعة الكلام تماما وتتغير أنواع الأدلة عن نوعية الباب السابق , لأننا أجبنا فيه عن موضوع شرط الرسالة لانقطاع العذر بوجه العموم .

أما في هذا الباب فنحن نتحدث عن حال من تلبس بالشرك وعبد غير الله ببعد الرسالة وبعد القرآن وما يستتبع ذلك من قضايا هامة(سبقتنا) ولها البحث وهي : المفهوم الشرعي للحجة وحد إقامة الحجـــة بالتوحيد على الناس وحد انتفاء الشبه , وضابط من يقيم الحجة والدليل عليه , ثم بيان اللبس والخلط في فهم شرط الله في قيام الحجة وهل هو بلوغها وسماعها ام شرط فهمها و العلم بها . وكذا , هل الشرط إمكانية العلم والتبصرة لمن قصده وطلبه ام الشرط هو إحداث السماع به فعلا على بيان يكون في موضعه إن شاء الله تعالى .

أقـــول : إنـــي فـــي هذا الباب , وهذه القضية من قضايا البحث أسير كما اشترطت بنفس عمادي وحجتي كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بالأدلة الواضحة القاطعة الدلالة , لا تقبل ليا ولا تـــأويلا , وأجـــزم بأن المخالف لا يملك شبهة شرعية في ردها , و إنما كل جهده في التقليد والرأي كما سوف يتضح .

وبادئ بدء أقول : أن جل الأدلة التي احتجوا بها سابقا على ربط العذر ببعثة الرسول تسقط كلها مـــن ســـاحة الاستدلال في هذه النقطة لأنها كلها تتكلم عن عذر من هم قبل البعثة وقبل الرسالة فصح بطلان الاستدلال بها جملة على من هم بعد الرسالة , وبيان ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول فـــي سورة الإسراء : {... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } الإسراء15 ، فنص هذه الآية يـــتحدث عـــن انتفاء العذاب عمن هم قبل بعثة الرسول, ولكنها لم تتعرض لما بعد البعثة هل يقع العذاب بمحض وجود الرسول وبعثته في الأرض فينقطع العذر عن العالمين أم الشرط هو السماع بوجـــوده ؟؟ أو الـــشرط هو السماع بوجوده وبرسالته ؟ وهل الشرط في الرسالة هو نصها كما أوحى بها الباري إلى النبي المرسل ؟ ام الشرط هو الرسالة وتفسيرها وأشياء زائدة على نصها ؟ وهل الشرط في إقامة الحجة بها هو البلوغ والسماع ؟ ام الشرط هو الفهم والتعقل وانتفاء الشبه عند المحتج عليه ؟ وهل الشرط هو إمكانية التوصل للحجة وتيسر وجودها ؟ أم الشرط هو إحداث السماع الفعلي بها عند المحتج عليه فيخرج من ذلك من أعرض ابتداء ولم يسمع بها قبل الرسالة لأن مـــدار النزاع سيكون في من هم بعد الرسالة لا من قبلها , مما سنتتبع طرح القضية بصورة مختلفة , ومواضيع آخر وأدلة مختلفة كذلك على ما سنبينه إن شاء الله تعالى في موضعه وبالله التوفيق .

الباب الثاني : الحجة : صفتها. إقامتها. شرطها

تكلمنا في الباب السابق – بحمد الله وتوفيقه– على قضية تأثير عارض الجهل على من خرق التوحيد وتلبس بالشرك عموما كأحكام نميز بها الناس , ونتعامل على أساسه في ظاهر الحال بغض النظر عن كونه معاقبا عند الله تعالى يوم القيامة بشركه وكفره أو معفوا عنه لجهله , وقد أقمنا الأدلة القواطع على صحة قولنا ومذهبنا , وثبت أن من نقض التوحيد وتلبس بالشرك وعبد

غير الله حكمنا عليه بالكفر يقينا وتعاملنا معه في ظاهر الأمر على أساس هذا الحكم ,سواء علم أم جهل , عاند أو قلد وتابع .

وأوضحنا – بفضل الله – أن المخالف لم يأت على قوله في ذات الموضوع بدليل يصح , و إنما كل ما شاغبوا به إنما في قضية أخرى وهي قضية عذابه يوم القيامة بشركه أو العفو عنه لجهله , ثم استتبعنا ذلك ببيان آخر حققنا فيه هذه القضية . وأثبتنا أن المشركين معذبون بشركهم وعبادتهم غير الله تعالى سواء جاءهم رسول أم لم يأتهم ,و إنما عذرهم لو كان إنما في الشرائع وما هو مستقر في الفطر المستقيمة من البر , كتحريم الظلم وقتل النفس بغير حق والزنا واللواط وأكل الربا وأكل مال اليتيم ونحو ذلك .

أقول : كل هذه الأشياء سكتت عنها هذه الآية ولم تتعرض من قريب أو بعيد لشيء منها كما هو واضح لذي عقل , فصح يقينا ما قدمناه من بطلان الاستدلال بنص هذه الآية على هذه القضايا كلها

ومن هنا تعلم مدى ما يملك مخالفونا من فقه وفهم عندما احتجوا علينا بهذه الآية وما شابهها على عذر أهل زماننا ممن عبدوا غير الله صراحة بل كما يقول مخالفونا صراحة بلسانهم " أنهم أتوا بالشرك الذي كان عليه أبو جهل ومن تابعه " , فيأتي لنا بطرح مسألة أنهم معذورون بالجهل مع توفر كتاب الله محضا لم يغيّر كما أنزل على النبي المرسل صلى الله عليه وسلم وهو ما لم يحدث قط لأمة من الأمم خلت , فضلا عن كتب السنة والتفسير وكتب اللغة وغير ذلك .

فقلنا : يا قوم أعذرتموهم بالإعراض عن الذكر وهجر الدين والعلم ؟ أم عذرتموهم بقلة العلم بآثار الرسالة ؟؟ فلما تحركت بقية من الحياء في ضمائرهم قالوا : لا يوجد من يحسن إقامة الحجة عليهم وهناك أئمة سوء وضلال أضلوهم وغير ذلك من القضايا لم نسمع عنها قط بهذا المفهوم وهذا الطرح إلا في هذا الزمان , صاحب الأعاجيب والمبتدعات , فلما سألناهم عن هذه الشروط التي اشترطوها : أ بدليل هي أم بالهوى ؟؟ وجدت أكابرهم ودعاتهم يحتجون عليك بقوله تعالى: {... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } الإسراء15 . فإن سألت : وأين يا قوم موضوع الدلالة في هذه الآية على هذه التفصيلات التي اشترطتموها ؟؟ فما سمعت مجيبا ,ولا وجدت منصفا فهما , وإنما وجدت الغوص وراء ومتفرقات الكلام لبعض العلماء والفقهاء ووجدت التسفيه والرمي بالابتداع في الدين , ولا حول ولا قوة إلا بالله , فكما وضح : فهذه الآية إنما يستدل بها على موضوع من هم قبل البعثة , وأهل الفترة فحسب , بل لو صح أن يستدل أحد الخصمين بهذه الآية لكنا نحن أحق بها وأهلها , وذلك أن الآية قيدت العذر بعثة الرسول وتكون الحجة قد قامت على الخلق كلهم .

ولكنا نقول:أن هذا دليل خطاب وقد سبق وبينا أنه ظني الدلالة لا تقوم بمثله حجة ملزمة تنفي ما سواها. ومثل ما قلناه في هذه الآية نقوله في ما شابهها مثل قوله تعالى : { رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ .... } النساء165 ، ومثل قوله تعالى: { .... كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ{8} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ{9} الملك ، ومثل قوله تعالى : { وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ } الزمر71 ، ومثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (وليس أحد أحب إليه العذر من الله , ومن أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين) (رواه مسلم) .

أقول :هذه النصوص كما هو واضح بين إنما تتحدث عن قطع العذر عن الكافرين ببعثة الرسل , ولو تأملها المخالف لنا بعين الإنصاف والعدل لعلم أنها حجة عليه لا له ــ وبهذه البديهة البسيطة في فهم النصوص , نكون بفضل الله قد أسقطنا جميع حجج القائلين بعذر أهل اليوم بشركهم لعرض الجهل , ولم يعد إليهم ــ كما سنرى ــ إلا أقول الرجال والتقليد الحمض , معرضين عما أمام أعينهم من دلائل القرآن المجيد وسنة النبي صلى الله عليه وسلم , فاحفظ هذا جيدا فإنه فاصل في النزاع ...

نبدأ الآن بعون الله وتوفيقه في مناقشتهم لمفهومهم أمر الحجة ثم نعرض بعد ذلك لوجه الحق إن شاء الله تعالى .

سألناهم : ما هي الحجة التي ينقطع بها العذر في التوحيد ؟؟ وما حدّها الذي يوجب انتفاء حجة المحتج عليه ؟؟ , وما حد الانتفاء ؟؟ , ثم ما دليلكم على ذلك كله ؟؟؟؟

ومع أن هذه الأسئلة من أولويات القضية وحدودها اللازمة الضبط قبل الخوض في القضية,وإصدار حكم عام وقاعدة مطردة بالعذر للجماهير وعدمه , مع ذلك وجدنا القوم يفتقدون أبسط معاني الفهم وأس الاستدلالات ودلائل الضبط والتحديد ..

ثم سألناهم : ماذا لو أقمت الحجة على شرك من استشرع شريعة من دون شرع الله تصرف بها في عباد الله وقضى بها في دمائهم وأعراضهم , وكذا من تحاكم إليه راضيا غير مكره , وبينت ذلك بالأدلة القاطعة في كتاب الله هل لا تكون الحجة قائمة إلا أن آتي له بأحاديث كشرط لازم ؟؟ ثم ماذا لو أتيت له بآيات وأحاديث تفيد القطع والحسم , هل لا تكون الحجة قائمة حتى آتي له بتفسير الأئمة المشهورين؟؟ ومن هم الأئمة المشهورين في وجهة نظركم ؟؟ فإن قلتم فلان وفلان سألناكم : وما الدليل والبرهان على جعله حجة يعذر من جهل بها , وينقطع العذر عمن سمع بها ؟؟ ثم نسألكم : كم إمام يكفيني الاستشهاد بقوله منهم حتى تكون الحجة قد قامت على العباد ؟ فإن

قلـــتم : كـــذا عالما سألناكم وما الدليل والبرهان على هذا الشرط وهذا العدد ؟؟...فانكشف عوار الأفاكين وبان فحش احتكامهم للهوى المجرد والرأي المحض من غير بينة ولا سلطان .
ثـــم ســـألناهم : ما هو حد الحجة الذي تنتفي معه الشبهة ؟ فلما أعيتهم النصوص أن يجدوا فيها تلفيقا يوافق مذهبهم الفاسد, احتكموا إلى ابن حزم , فقالوا: قال ابن حزم : وصفة الحجة أن تبلغه فلا يكون عنده شيء يقاومها .
فـــسألناهم : هل شرط ابن حزم ذلك في قضية الإيمان والكفر والتوحيد والشرك , أم في معرض كلامـــه عن النزاع في الفرق الداخلة تحت حكم الإسلام ، وما ثار بينها من قضايا تحتاج لإثباتها الجمع بين أطراف الأدلة , ومعرفة الناسخ والمنسوخ والعموم والخصوص , وغير ذلك من أسس الفقـــه وأصـــوله , والدرايـــة الواسعة بالسنة والسيرة بالذات , وهي القضايا التي اصطلح بعض الفقهاء على تسميتها بالأمور الخفية , ومنها ما ثبت بأخبار الآحاد؟.
ثم سألناهم : هذا الكلام رأي محض من ابن حزم رحمه الله , فهل قول ابن حزم حجة ملزمة في دين الله ؟ فإن قلتم حجة ملزمة كشفتم النقاب عن أقنعتكم , وصرحتم باتباعكم الرجال , وتقليدهم بلا برهان , وإن قلتم : ليس كلام ابن حزم بالحجة الملزمة في دين الله , لزمكم إبطال ما استدللتم به من كلامه , ثم عدنا لسؤالنا , ما هو حد الحجة إذن وحد انتفاء الشبهة بها ؟.
ونعود لنناقشكم فيما نقلتموه عن ابن حزم في قوله ," وصف الحجة أن تبلغه ..." ونسأل: ما هي تلـــك التي تبلغه ؟ إن النزاع بيننا قائم فيما يدل عليه ويرجع إليه هذا الضمير ,ألا ترون أنكم بهذا الـــنقل عـــن ابن حزم رحمه الله لم تحسنوا البيان , وأنكم إنما أتيتم بإشكال على إبهام ولم تأتوا بتحديد لحد الحجة بحال .
ثـــم نعـــود لنسألكم فيما نقلتموه عن ابن حزم في قوله :" ... فلا يكون عنده شيء يقاومها " هل يعني ذلك استيفاء ما عنده من شبه والجواب عليها؟ فإن قلتم نعم , سألناكم: وما الدليل على هذا الـــشرط ؟؟ ثم هل يعذر بهذا الشرط اليهود والنصارى الآن لثبوت الشبهات عنهم يقينا حول دين الإسلام مما يبثه كبراؤهم وسادتهم وأحبارهم و رهبانهم ؟ أم أن العرب لهم شأن في الشرك غير شأن العجم ؟؟ أم أن ملة الشرك في أممهم شيء وفي هذه الأمة شيء آخر معفو عنه ؟؟.
ألا فلـــيعلم أن الـــناس ســـواء أمام حكم هذا الدين , كبيرهم وصغيرهم , عربيهم وأعجميهم ,من انتـــسب لـــشريعة محمـــد صلى الله عليه وسلم ودان بتوحيد الله عز وجل وخرج من الشرك فهو المسلم الذي يثبت له عقد الإسلام ومن لم يؤمن بهذا الشريعة ودان بعبادة غير الله تعالى , وتلبس بالشرك فهو كافر مشرك بالله , من الخاسرين , حكم واحد ثابت مطرد :
{ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الزمر65 .

ثـــم نعـــود فنسأل : ما هو حد انتفاء الشبهة عند المحتج عليه ؟؟ وكيف يستشعر المحتج بأنه قد اســـتوفي البيان وقطع العذر؟وجامع جوابنا على ما قدمنا هنا من مناقشة لهم , أن كل شرط وحد يضعونه ولم يرد به نص كتاب أو سنة صحيحة فهو باطل لا وجود له أصلا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله , كل شرط ليس في كتاب الله فليس بشرط ولو كان , مائة شرط , قضاء الله أحق وشرط الله أوثق) (رواه البخاري) .

وكـــلام ابـــن حزم ليس حجة ملزمة في دين الله وإنما هو حجة عند المقلدة ,على مذهبهم الفاسد وطـــريقتهم الخاطئة , وقد بان لك أن القوم لا يملكون فهما محددا للحجة ولا حدا لها , فضلا عن الدليل الشرعي على ذلك , أقول : لما ظهر ذلك , فنحن ــ بعون الله وتوفيقه ــ نسوق لكم الأدلة القواطـــع علـــى المفهـــوم الـــشرعي الثابت والمحدد في شرع الله , وهديه لصفة الحجة وحدها ,محتكمـــين في ذلك إلى كتاب الله تعالى وما صح من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ,قال تعالى : {.... فَـــإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } النساء59 .

وصـــفة الحجة التي تنتفي معها حجج المشركين وينقطع بها العذر عنهم إنما هي كلام الله وكتابه المجـــيد " هـــذا القرآن ".. نعم محض هذا القرآن على وجه التحديد , فمن بلغه القرآن فقد بلغته الحجة وقامت عليه البينة بدين الحق .

البرهان الأول:

قال تعالى : {.... وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ .... } الأنعام19 ، ولفظ " به " يعـــود فـــيه الـــضمير إلى القرآن " فصح أن الإنذار وهو الحجة الملزمة إنما يكون بهذا القرآن , ولفـــض" ومن بلغ " دليل آخر لتأكيد ثبوت الحجة على من بلغه القرآن , وفي هذه الآية المحكمة البينة نكتة طيبة نحتاجها في موضع آت بإذن الله , تقول العرب : بلغ الشيء , وصل إليه , وبلغ فلان الماء , وصل إليه سواء شرب منه أم لم يشرب , فبلغه القرآن أي وصله , فهذا دليل واضح قاطع , لا لبس فيه ولا غموض , ونتحدى أن يثبت أحد خلافه , و بالله التوفيق .

البرهان الثاني :

قـــال تعالـــى : { المـــص{1} كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ{2} الأعراف ، فصح بصريح لفظ القرآن أن الإنذار إنما يكون بمحض هذا القرآن , لقوله تعالى : { لِتُنذِرَ بِهِ} أي بالقرآن , هذا بيان جلي.

وممــا يؤســف له ويبكي منه بدمع العيون , أن يشغب المخالف لنا في هذه الأدلة بأن الناس قد يكــون عندهم الشبهات التي يضلهم بها أئمة الضلال و فقهاء السوء , ليلبسوا عليهم دينهم فلزم عذرهم حتى نفهمهم الكلام , ونفقد لهم الشبه, ونبين لهم فساد كلام أئمتهم وكبرائهم .

قلــت : وهذا من أفسد ما تذهب إليه العقول , وتضل به الألباب , فهو فضلا عن كونه دعوى بلا برهان وهو أمر لا يعجز عنه كل أفاك مبتدع زائغ فإنه مخالف لبيان الله مخالفة ظاهرة , فكم قص علينــا القــرآن المجــيد أن ضلال المشركين وكفرهم و خسارتهم إنما كان بتضليل أئمتهم لهم ، وتلبــيس الدين عليهم وبثهم الشبهات في معاني الدين وحول الحق وتشويه صورة دعاته بشتى الأوصــاف و الاتهامــات . بــل هــم الذين حكى القرآن المجيد عنهم قولهم : {.... يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُــضْعِفُوا لِلَّــذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ } سبأ31 ، وهم الذين حكى عنهم القرآن المجيد قولهم يوم القيامة : { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا } الأحزاب 67 .

وهــم الذين قص علينا القرآن المجيد أسفهم وخيبتهم في النار { وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُــدُّهُم مِّــنَ الْأَشْــرَارِ{62} أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ{63} ص ، وفي هذه القــضية كــذلك قــول الحق سبحانه وتعالى : { وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُــرَكَآؤُهُمْ لِيُــرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِــسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } الأنعــام137 ، وفــي ذلك قول الحق سبحانه وتعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنــسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } الأنعام112.

وفــي ذلــك قول الحق سبحانه وتعالى مقررا سبب كفر جماهير المشركين : {.... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ } الأنبياء24 ، فهؤلاء قد جاءهم النذير وسمعوا الذكر ولكن تضليل أئمتهم لهم ، وتلبيسهم الأمر عليهم ، وتشويشهم على الحق و أهله ، فضلا عن الفسق الذي في قلوب الناس جعلهم ضالين عن معرفة الحق الواضح ولزومه ، مخلوط عليهم أمر الهدى والضلال ، بــل وصــل الأمر عند بعضهم إلى الاعتقاد الجازم بصحة مذهبهم ودينهم وفساد مذهب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن تابعه فيقولون يوم القيامة : { وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّــنَ الْأَشْرَارِ } ص62 ، فما علمنا نصا في كتاب ولا سنة صحيحة ولا ضعيفة ولا قول صاحب ولا تابع ،يقول بان هؤلاء الضالين ناجون من النار معذورون بتضليل أئمتهم لهم ووجود الشبهات في عقائدهم الحق ، و إنما ابتدع مثل ذلك البهتان المتجرئون على الشريعة والمتطفلون على الفقه والعلــم فــي آخــر الزمان ، بل وجدنا كافة النصوص الشرعية تبين بجلاء ووضوح أن الضالين

والــذين أضــلوهم كلهم في النار من الخاسرين ، إلا الذين تابوا وتاب الله عليهم بلزومهم الهدى ودين الحق وشرح صدورهم للإسلام .

هــذا ...... وقضية الضلال والإضلال ، سنزيدها بيانا وتفصيلا ـــ بإذن الله ـــ في فصل كامل منفرد ، من الباب الثالث في هذا البحث ، ونوضح ما التبس فهمه فيها على بعض الطوائف في هذا الزمان .

البرهان الثالث:

قـــال تعالى : { وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِــكَ بِــأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ } التوبة6 , وفي هذه الآية المباركة دلالتان اثنتان كلتاهما قطعية الدلالة في موضعها, أما الأولى ففي قوله تعالى {كَلاَمَ اللّهِ} , فصح أن البينة التي ينقطع بها عذر المشركين عند المسلمين إنما هي كلام الله , ويثبت ما قدمناه من أن الصفة الشرعية المحدد إنما هي(القرآن)، وأما الثانية ففي قوله تعالى { حَتَّى يَسْمَعَ } , وأهل العربية يعلمون علم اليقين أن قــول الله سبحانه { حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ } هو خلاف قول القائل " حتى يفهم كلام الله " , وبين مدلـــول هــذه اللفظة وتلك بعد ما بين المشرق والمغرب. فصح أن قيام الحجة إنما تكون بمجرد السماع لكلام الله , فهم أم لم يفهم , أضله فيه مضل أم وفقه الله تعالى للهدى والرشاد وأبعد عنه أهــل الــضلال , وكمـــا قدمنا : لو أضله عن آيات الله مضل لكان هو والذي أضله في النار من الخاسرين .

وقــضية إقامة الحجة والشرط فيها سيأتي–بإذن الله– بعد قليل ولكنا عرضنا لها هنا على عجالة ردا على ما أثير في قضية الضلال والتي طرحنا بعض مفهوم مخالفينا لنا .

البرهان الرابع :

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ{1} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً{2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3} البينة .

وهذا دليل قطعي محكم ومفضل في ذاته وهو ــ بفضل الله ــ من أوضح ما تكون الأدلة وأعظمها , فقد بين الله تعالى أن المشركين لا ينفكون من شركهم حتى تأتيهم البينة , وهي الحجة الرسالية , ثم جاء الشرح والتفصيل والضبط والتحديد الرباني لصفة البينة بأنها : { رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُـــحُفاً مُّطَهَّرَةً{2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3}، فصح بيقين ما قدمناه من أن صفة الحجة الرسالية إنما هـــي كتاب الله المجيد , وفي الآية دلالة أخرى نحتاجها عند الكلام عن صفة قيام الحجة وشرطها إن شاء الله .

البرهان الخامس :

قـــال تعالـــى: { وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَــزَنَتُهَا أَلَــمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِــنْ حَقَّــتْ كَلِمَــةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ } الزمر71 ، فصح بجلاء وبيان رباني أن الحجة الرسالية التي حدها الباري لعباده إنما هي القرآن { يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ } , وفي الآية دلالة أخرى نحتاجها بعد حين , وبالله التوفيق .

البرهان السادس :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(والقرآن حجة لك أو عليك) رواه مسلم.

فهذا دلائل كلها قاطعة على صحة ما قدمنا من أن الحجة هي كتاب الله , هذا هو التحديد والضبط الشرعي الصحيح لهذا الأمر, فلا يصح خلاف ما قرره الباري سبحانه في كتابه , وقد سبق وبينا أن المخالــف هــنا لا يملك أي دليل شرعي على مذهبه , هذا إن كان له مذهب وفهم محدد لها , وبالله تعالى التوفيق .

هذا وقد لخص الشيخ محمد ابن عبد الوهاب ــ رحمه الله ــ بيان هذه القضية في إحدى مكاتباته مع نفر من إخوانه فقال :"وما ذكرتم من قول الشيخ ــ بن تيمية ــ كل من جحد كذا وكذا وقامت علــيه الحجة ــ و إنكم شاكون في هؤلاء الطواغيت وأتباعهم هل قامت عليهم الحجة ؟ فهذا من العجب , كيف تشكون فيه , وقد أوضحته لكم مرارا , فإن الذي لم تقم عليه الحجة هو الذي حديث عهد بالإسلام , والذي نشأ ببادية بعيدة , أو يكون ذلك في مسألة خفية , مثل الصرف والعطف , فــلا يكفــر حتى يعرف , أما أصول الدين التي أوضحها الله وأحكمها في كتابه فإن حجة الله هو القــرآن , فمن بلغه القرآن فقد بلغته الحجة ,ولكن أصل الإشكال أنكم لم تفرقوا بين قيام الحجة وبين فهم الحجة , فإن أكثر الكفار والمنافقين من المسلمين لم يفهموا الحجة مع قيامها عليهم كما قال تعالى :{ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً } الفرقان44 , وقيام الحجة نوع وبلوغها نوع , وقد قامت عليهم الحجة , وفهمهم إياها نوع أخر , وكفرهم ببلوغهم إياها وإن لم يفهموها ."

قلت: ولو أن افصح العرب و أبينهم لسانا أراد أن يفصح عن فهمه للمسألة لما تعدى ما قال ابن عــبد الــوهاب ــ رحمه الله ــ في بيان هذه القضية , فكلامه غاية في الوضوح . ومع ذلك أبى القــوم إلا تزوير كلامه , فيا ترى ماذا قالوا ؟ كما وجدت في كتابات أحدهم ــ سيد غباشي ــ في رســالة ســماها " ســعة رحمة رب ا لعالمين " قال ما نصه : أما ما قاله الشيخ محمد بن عبد الوهاب ــ رحمه الله ــ وذكر النص السابق , فيقال إن هؤلاء الذين كفرهم الشيخ من الطواغيت ,

راسلهم وبين لهم بالآيات وكلام علماء المذاهب مرارا ــ كما ذكر ذلك في رسائله ــ فدعواهم عدم الفهم غير مقبولة ."

فانظـــر أيها اللبيب إلى قول بن عبد الوهاب " فإن حجة الله هو القرآن فمن بلغه القرآن فقد بلغته الحجـــة " ثـــم انظـــر إلى افتراء القوم عليه بأن الحجة إنما أقامها عليهم بكلام علماء المذاهب , وأغلـــب الظـــن قد اختلطت عليهم الأمور , وجوانب الدعوة الإسلامية وفق منهج الله في العمل , فالدعوة والبيان كفرض دائم مستمر على دعاة الحق أمر لا ينقطع ولا صلة بينه وبين كون الحجة قائمـــة أو ليـــست قائمـــة , فمن الممكن أن تكون الحجة قد قامت على الكافرين وانقطع عذرهم وأصبحوا مستحقين لعذاب الله و هلاكه ومع ذلك لا ينقطع دعاة الحق عن دعوتهم مرة ومرتين أو المرات إلى هذا الحق رجاء أن الله تعالى يمن عليهم بالهدى , ورحمة بهم فضلا عن كونه فرضا علـــى المـــسلمين يعذرون به إلى الله تعالى , قال تعالى :{ وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } الأعراف164 .

فاخـــتلط الأمر على القوم فظنوا أن الدعوة بمفهومها الشرعي هي الحجة وان الحجة هي الدعوة فلما رأوا ابن عبد الوهاب لا ينقطع عن دعوة هؤلاء الطواغيت وأتباعهم مرارا أو تكرارا ظنوا أن مـــا يفعلـــه الـــرجل هو إقامة الحجة,ولذلك تجد قائلهم في نفس رسالته السابقة "سعة رحمة رب العالمين" للغباشي يعقب على كلام الشيخ ابن عبد الوهاب رحمه الله بقوله :" أما أن الحجة تقوم ببلوغ الآيات فقط فليس واضحا".

قلت : بل أن عدم فهمك لكلام الناس هو الذي ليس بواضح ,و أما كلام الشيخ ــرحمه الله ــ فهو أوضح ما يكون الكلام وأفصحه , فاتقوا الله يا قوم واعتصموا بآيات الله وكتابه , وإياكم والرأي , وإياكم والرأي .

ومـــن ثـــم فقـــد نـــبهت وأنبه الناس أن سببت تخبط المخالف لنا في تطبيق قاعدة العذر بالجهل كما,وجدها في كتب بعض الفقهاء , فأراد تطبيقها في واقع الناس اليوم , أقول سبب تخبطه انه لم يستطع فهم قضايا الموضوع ومدى التداخل والانفصال بين كل منها , فهم لا يملكون فهما محددا لمعني حدود الجهل , وحد الحجة وإقامتها وكيف تقام والشرط فيها ومن ثم لجؤوا إلى آراء بعض الفقهـــاء كابن حزم , فوضعوها في غير موضعها الصحيح و لو أنهم نظروا في كتاب الله – وهو الأحرى بهم –لوجدوا هذه القضايا مفصلة أيما تفصيل , ولكنهم يعلمون أنهم لو التزموا بما بينته لهم نصوص القرآن الصريحة الحاسمة في جوانب هذه المسألة لعلموا علم اليقين فساد تصورهم لقضية العذر بالجهل برمتها .

وبسبب ما تكشف لنا من هذا الفساد في التصور والضلال في تحديد جوانب القضية وجدت أن أفرد الـــباب الـــثالث من هذا البحث بالكلام عن بعض القضايا الهامة التي أساء القوم فهمها كالضلال والاختلال , والإعراض وهجر الكتاب , والدعوة والحجة والاستتابة ,وبالله تعالى التوفيق .

ومـــن أوضـــح مـــا يدلك على فساد منهج القوم حتى في الاستدلال والتفاؤل من كلام الأئمة , أن صاحب الكلام السابق بعد أن اعترض على ابن عبد الوهاب في وصفه الحجة بأنها القرآن فحسب وجدته يقول :" وقد ذكرنا لك صفة إقامة الحجة من كلام أبي محمد بن حزم "اهــ .

سبحان الله .... أنهم لم يجعلوا كلامهم حجة علينا فحسب بدون برهان واكتفوا بذلك , بل وصلوا إلى اعتبار كلام بعضهم حجة على كلام الآخرين كذلك بغير سلطان ولا كتاب مبين هذا ... عندما يعجــبهم كلام ابن حزم هنا يحتجون به ويقلدونه ويقدمونه على غيره ممن خالفه , أما عندما لا يستهويهم كلامه ولا يعجبهم كقوله بنفي القياس ــ مع سوقه الأدلة على صحة مذهبه ــ رفضوا كلامـــه وهاجمـــوه وقدموا غيره عليه , بل منهم من اختلفوا : أمبتدع هو بذلك أم يعذر بخطئه؟ وكذلك مع ابن عبد الوهاب عندما يعجبهم قوله ويوافقهم كلامه يطيرون به كل مطير ويحتجون به , ثم إن خالفهم في غيره ولم يعجبهم قالوا : إنه غير واضح ولا مفهوم , فالحكم لله العلي الكبير .

أقول : ولا حجة عندي في كلام ابن عبد الوهاب أو غيره , وإنما الحجة في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم , وقد قدمنا منهما الأدلة القاطعة على صدق دعوانا , وأن الحجة التي ينقطع بها عذر المشركين إنما هي القرآن المجيد , وأعود لأؤكد وأجزم بأن من مخالفنا لا يملك هنا دليلا واحدا ينقض قولنا , والحمد لله على توفيقه .

ونعمد بعد ذلك ــ بعون الله وتوفيقه ــ إلى بيان معنى آخر من معاني قضية العذر بالجهل , وهو فـــي ذاتـــه فاصـــل فـــي النزاع ــ كما سيتبين إن شاء الله ــ لنوضح ضابطه الشرعي , وحده والشرط فيه كما ورد في كتاب الله وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته وهديه , ألا وهو صـــفة قيام الحجة .. ((صفة الحجة شيء , وصفة قيامها شيء آخر , فالحجة القرآن كما ذكرنا آنفا أما قيامها فهل بمجرد البلاغ والسماع أم بإحداث الفهم والعلم الضروري بها)) . ومتى تعتبر الحجة قائمة , هل الشرط هو بلوغها والسماع بها أم الشرط هو فهمها والعلم بها , ويتبع ذلك من بيان هل الشرط هو تيسرها و إمكان العلم بها ام تحقيق وقوعها فعلا , وما يتبع ذلك من بيان هل يكفـــي وجـــود الحق وأدلته أم لابد من دفع الشبه بحيث يقع العلم الضروري لدى المحتج عليه , ويـــرتبط بـــذلك الحـــديث عن صفة من يقوم بالحجة ــ بافتراض أنها ليست القرآن على مذهب المخالف ــ و ضابطه الشرعي لو كان .

ونـــبدأ فنسأل مخاليفنا : ما هي صفة قيام الحجة عندكم ؟؟ وعلى وجه الدقة والتحديد , فإن قيام الحجـــة لا يخلو من أحد أمرين , لا ثالث لهما إما أنها تكون بمجرد بلوغها والسماع بها , و إما بـــضرورة إفهامهـــا و إحـــداث العلم الضروري بها بما يقطع وجود الشبه , فإن قلتم أنها بمجرد البلوغ والسماع بها ــ وهو الحق كما سيتبين ــ كما جزمتم بسقوط قضية العذر برمتها في واقع اليوم وعلى التحديد بلاد العرب كمصر والشام والحجاز واليمن وغيرها وذلك أن هؤلاء القوم يتلى علـــيهم كتاب الله ليل نهار... ويحملون المدون منه في دورهم وملابسهم وسياراتهم بل وأمامهم

كتب التفسير واللغة والفقه والأصول والحديث والسير وشتى جوانب العلم التي توفرت بفضل من الله ورحمته ــ بشكل لم يسبق له مثيل في أمة من الأمم ــ ومع ذلك فهم لا يفقهون في كتاب الله حديثا , ولا يعلمون الكتاب إلا أماني وان هم إلا يظنون كسلفهم السيئ من كفار أهل الكتاب وما يدرون ما الإيمان لفسقهم وبغيهم و إهمالهم كتاب الله والنور الذي انزل , واشتغالهم بفلسفات الجاهلية وعلومها , حتى علوم الموسيقى و مدارسها ومذاهبها واتجاهات روادها وأهم أعمالهم شريعة الكفر الوضعية وأسها ومداخلها ومخارجها أو بقوانين الكرة والألعاب الرياضية وما يجوز فيها وما لا يجوز , ونقاط الاختلاف فيها , أو التبحر في علوم السياسة وألاعيبها ونفاقها والبحث عن سبل الترقي في مدارجها ومسالكها أو دراسة الشعر عربيه و أعجميه ومدارسه المختلفة والتقليدي والحديث منه , والنزاع بين أنصار هذا وذاك أو التبحر في التاريخ الفرعوني أو البابلي وتمجيد عباد الأصنام والشمس والقمر وتقصي أخبارهم وحوادثهم والاحتفال بهم أو الانشغال بالدنيا عموما وملذاتها وشهواتها واستخفاف ملوك تنميط العقل البشري من اليهود وعبادهم ثم هم بعد ذلك معرضون عن دراسة كتاب ربهم هاجرون له, وهو الهدى والنور, مكتفين بشتى مفاسد الجاهلية التي يسمونها علوما وثقافات , بل إن الشاذ منهم عندما يدرس في هذا الكتاب فهو إما ابتغاء مهنة أو وظيفة حكومية وإما على سبيل البحث الثقافي في التراث البشري والإنساني ــ زعموا ــ ابتغاء مركز اجتماعي استكبارا في الأرض ومكر السيئ .

والخلاصة هنا , أنكم لو سلمتم معنا بأن الشرط هو مجرد البلوغ وسماع الحجة , فقد جزمتم بفساد مفهومكم لقضية العذر كما هو واضح , أما إن قلتم أن الشرط هو ضرورة فهم الحجة وحدوث العلم بها وقطع الشبه ــ وهذا قولكم ــ أتيتم بعظيمة في الدين , ولزمكم عذر اليهود والنصارى اليوم يقينا , لأن كل عاقل يعلم أن الحجة لم تقم عليهم بهذا التحديد الذي حددتموه ... فجماهيرهم مقلدون تابعون يجهلون دلائل القرآن المجيد لإعراضهم عنه فضلا عما يبثه فيهم أئمة الضلال من الأحبار والرهبان من شبه حول القرآن ودلائله, فهلا عذرتم اليهود والنصارى بجهلهم على مذهبكم ؟؟ أم ماذا كنتم تعملون ؟؟.

ومن العجب أننا لما عارضنا بعضهم بأمر اليهود والنصارى قالوا: أننا كفّرنا من دان بدينهم , قلت وكذلك النصوص القطعية في الكتاب والسنة دلت على كفر من توجه بالنسك لغير ذات الله تعالى , او استنصر غير الله أو استرزق من الأموات , وكذا من شرع شرعه من دون شرع الله يتصرف بها في جزء من كون الله وقضى بها بين العباد في دمائهم و أموالهم وأعراضهم , فلماذا عذرتم هؤلاء ولم تعذروا هؤلاء ؟؟

وكذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم يقول :(ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار) (رواه البخاري ومسلم) ، فبأي سلطان فرقتم بين من أشرك من المنتسبين لدين محمد صلى الله عليه وسلم وكلاهما نقض التوحيد ؟؟ ام أن الله تعالى جعل القرآن حجة بمجرده على اليهود والنصارى

وليس حجة على كفار العرب ومشركيهم إلا بشرح ابن تيمية وابن القيم وابن حزم ,ام هو الهوى والـتحكم بالـباطل ؟ أريد أن أقول:أن الاعتراض عليهم هنا بشرك اليهود والنصارى هو في ذاته حجة ملزمة,ولا انفكاك منها إلا أن يحكموا محض الهوى التلذذ و أنا أعلم جيدا أنه لولا بقية من الحـياء عند بعضهم لحكموا بعذر اليهود والنصارى وأنهم ليسوا كفارا مشركين إلا من بعد إقامة الحجـة الرسالية الغيبية على كل رجل وامرأة بالكتاب والسنة وتفسير الأئمة المشهورين , وبيان فساد ما عندهم من شبه , و إبطال ما يموه به أحبارهم و رهبانهم على الحق و أهله ؟ ليس كذلك ؟ نبؤوني بعلم إن كنتم صادقين .

هـذا وقـد تواترت النصوص الشرعية القرآنية على بيان أن من الكفار من لا يفقه كتاب الله ولا بيان رسوله , ويموت يوم يموت وهو شاك في قضايا الإيمان بهذا الطرح الذي طرحه رسول الله صلى عليه وسلم , بأن يظن أنه الأهدى سبيلا , قال تعالى : { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً{103} الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً{104} الكهف ، وهـذا بـرهان جلي ، وبيان إلهي ، يدفع من اشترط الفهم والعلم بالحجة في انقطاع العذر بنص قوله تعالى : { وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً} فلو صح اشتراط الفهم لصح عذر هؤلاء بل لـو صح شرط الفهم في إقامة الحجة لصح عذر من قال الله تعالى : {... إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِـيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ } الأعراف30 ، وكذلك من حكى الله عنهم عدم فهمهـم للحق أو معرفتهم به في سورة الفرقان : { وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَـثَ اللَّهُ رَسُولاً{41} إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً{42} الفرقان .

سـبحان الله : هل هناك سوء فهم للحق وتلبيس فيه بمثل ذلك حتى يقول " { إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا } ، فلعمر الحق لو صح اشتراط الفهم ورفع الشبهة في مقام الحجة للمـشركين لصح بيقين عذر هؤلاء الضالين ،ولكن وجدنا الحق سبحانه وتعالى يقول معقبا على كلامهم : { وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً } بل إن الله تعالى يقرر بوضوح وجـلاء يقطع ألسنة المخالف لنا في هذه القضية ، يقرر سبب كفر اكثر المشركين بقوله تعالى : {... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ} الأنبياء24 ، فهل بعد بيان الله من بيان؟وهل خرست ألسن الأفّاكين؟وهل كشف عوار المبتدعين؟اللهم فاشهد .....

أقـول : فقد صح مما قدمناه بوجه القطع واليقين بطلان اشتراط الفهم والعلم القطعي بالحجة بما يقطع الشبهة في إقامة الحجة وبان لك فساد من زعم أن الشبهة التي تعلق بأذهان الكافرين توجب العـذر، أو وجود أئمة الضلال و إضلالهم يوجب العذر وغير ذلك مما لا أعلم له سابقة في تاريخ الإسلام والفقه ، ولعمر الحق إن هذا الذي بيناه من فساد هذا الشرط لهو أوضح في الشريعة من

أن نستقــصي الأدلة عليه ولكن كيف نصنع ، وقد لقينا من ينازعنا في مسلمات الشريعة وقواعد الفهم الأولية ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وبعــد أن عرضـــنا لك فساد مذهب القوم في ذلك ، نقرر لك بعون الله ، وجه الحق جليا ونبرهن عليه بدلائل الكتاب والسنة وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وهديه

أقول : وصفة قيام الحجة إنما هي بلوغها للمرء بحيث يمكنه الوقوف عليها ومعرفتها ، وسواء وقف عليها وحرص عليها ونظر فيها أو صم أذنيه عنها وأعرض وانشغل بغيرها وسواء فهمها أو لم يفهمها فالحجة تعتبر قائمة عليه في كل ذلك : بمحض البلوغ والتمكن من السماع .

البرهان الأول:

قال تعالى : {.... وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ... } الأنعام19 .

ووجـــه الدلالة في قوله تعالى :" وَمَن بَلَغَ " فصح أن الإنذار يكون بمجرد بلوغ الحجة , والعرب تقول : بلغ فلان الماء إذا وصل إليه فصح أن شرط الله إنما هو البلوغ لا الفهم , فلا نشترط إلا ما شرطه الله تعالى .

البرهان الثاني :

قال تعالى : { وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ... } التوبة6 .

فهـــذا هو الشرط الواضح البين الذي لا يتعداه إلا مكابر," حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ " ولو قال الحق ســبحانه وتعالى " حتى يفهم كلام الله " لجاز لهم أن ينازعوا , والعرب ــ كما قدمنا ــ تعرف أن بــين الفعــل " يسمع " والفعل " يفهم" بعد ما بين المشرق والمغرب , قال تعالى : { وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ... } الأنعام25 ، فالسماع شيء والفهم شيء آخر , وشرط الله كما قدمنا " حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ " , و بالله التوفيق .

البرهان الثالث:

قـــال تعالـــى : لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ{1} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً{2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3} البينة ، وهذا برهان واضح حاسم , لا مدفع له , ولا صارف لدلالته, بين أن البينة ليست بافهام الحجة وإنما بتلاوتها , { يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً } وسبق وأن وضحنا أن هذه الآية من أعظم دلائل القرآن , على مدلولها .

البرهان الرابع :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني من هذه الأمـــة , وبالذي جئت به ثم لم يتبعني إلا حرمت عليه الجنة) فصح أن مدار قيام الحجة وانقطاع عذر المشركين إنما هو السماع لا الفهم والعلم الجازم وانقطاع الشبه كما يزعم المبطلون .

وكـــذلك فالـــثابت المتقـــرر في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وهديه مع المشركين أنه ما كان يصنع ما تزعمه بعض الطوائف اليوم من إقامة الحجة العينية على كل رجل من المشركين وعلى امـــرأة مـــنهم ودفـــع ما عنده بذاته من شبه حتى يحكم عليه بالكفر بعد ذلك وقبلها يعذر, وإنما الصحيح الثابت أنه صلى الله عليه وسلم كان يبلغ كلام الله ويسمعه الناس , ويحتج به عليهم كما فعـــل مع ابن ربيعة عندما جاء يساومه فتلا عليه القرآن , وبه كان يجاهد الجهاد الكبير كما قال تعالى : {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً } الفرقان52 ، أي بالقرآن وبه يفرق بين الحق والباطل،فمن أقبل عليه أقبل ومن أعرض عنه أعرض {... فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً } النساء80 ، ومـــن فهم الحق منهم فبتوفيق من الله ورحمة منه ومن ختم الله على قلبه ولم يفهم فبفسقه وما يعلمه الله في نفسه .

بيد أن كل عاقل , يعلم أن شرط الفهم في الحجة من المحال إيجاده واستيفاؤه في الأحكام الدنيوية لو صح اشتراطه بداية وذلك أنه أمر خارج عن طائل الضبط البشري, ولا يمكن الوقوف عليه في ظاهـــر الحـــال أو نوجد له حلا إلا أن نتحكم بالهوى والتلذذ , فصح بطلان اشتراطه عقلا بعد أن أثبتنا بطلانه شرعا بالنقل .

ورحـــم الله ابـــن القيم فقد تنبه إلى هذه النقطة الفاصلة حيث يقول :"والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل فهذا مقطوع به في جملة الخلق أما كون زيد بعينه أو عمرو قامت الحجة أم لا فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه , بـــل الـــواجب علـــى العبد أن يعتقد : أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر وأن الله ســـبحانه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول هذا في الجملة والتعيين موكول إلى الله وهـــذا فـــي أحكام الثواب والعقاب , أما أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر" وهذا كلام جيد متين وتحقيق مفصل وهو تأكيد لما قلنا , وبالله التوفيق .

ثـــم نسألهم : من هو الذي يقيم الحجة ؟ وما صفته وتحديده الشرعي ؟ وهم قد قالوا من قبل : " إن الذي يقيم الحجة هو من يحسنها ".

قلت : وهذا إشكال أحيل به على إبهام فنحن نسأل أساسها :من هو ذلك الذي يحسن الحجة ؟وكم آيـــة يعلمها ؟ وكم حديث ؟ وكم قول لصاحب وتابع ؟ وكم قول لفقيه وعالم ؟ كذا بافتراض صحة مفهومكم للحجة ثم ما دليلكم على هذه الشروط والضوابط كلها ؟؟؟

ثــم نسألهم : من في واقع الأرض الآن يصلح لإقامة الحجة ؟ فإن قالوا : فلان , سألناهم : وما الدليل والسلطان من الله على أن فلانا بعينه هو صاحب الحجة الملومة التي يكفر من خالفها بعد علمه بها ؟

أريــد أن أقــول : إنهم هنا أمام أحد خيارين لا ثالث لهما , إما أن يحكموا هواهم ويحدوا حدودا ويشرطوا شروطا بغير هدى ولا كتاب منير، وإما أن يقرّوا معنا بأنه لا يوجد ضابط ولا حد لأحد بهــذه الصفة بحيث يكون هو الحجة التي يعذر الناس قبلها ولا يعذرون بعدها , ولزمهم التسليم معــنا أن الحجة على المشركين وعلى الناس جميعا في أمر التوحيد إنما هي قائمة بمحض كتاب الله , والعذر منقطع لمن بلغه كلام الله , سمع وفهم أو سمع ولم يفهم , أقبل على الحق واستمع أو عرض وتولى .

أقول : ولو تتبعنا القوم هنا وألزمناهم لوازم كلامهم لكشفنا فضائح لهم حجة عليهم , ولطال بينا المقام بما نكره القيام عنده فنكتفي بما قدمناه في ذلك ولله الحمد والمنة .

وجماع ما قدمناه هنا في هذا الباب أن الصفة الشرعية للحجة إنما هي كتاب الله العظيم ,وأن صفة قــيامها إنما هو إبلاغها للمدعو بحيث يمكنه الوقوف عليها , فإن صم أذنيه أو استغشى ثوبه أو تلهى عنها ,أو أعرض أو لم يفهم فلا عذر له , و وجب إثبات الحكم الشرعي الواجب فيه من غير الــتفات لجهل أو غيره , هذا ما قامت عليه البراهين القاطعة . إذا صح ذلك فاعلم أن واقع بلاء العرب الآن –وهي محل النزاع بيننا وبين مخالفينا– قد قامت فيها حجة الله على العباد وانقطعت عــنهم أية شبهة لعذر, وسواء قلنا إن الحجة هي مجرد الكتاب أم هي الكتاب والسنة وكتب الفقه والتفــسير والأصــول واللغة وغيرها , أقول : مهما زعموا في اشتراط الحجة فهي قائمة بكل ما اشــترطوه , وأصــبح لاشك لدينا في أنه قد رضي بجهله ورضي جهله به , ولا شك في أنه كما وصف الله سبحانه وتعالى أمثاله : {... كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ...} الجمعة5 .

ولــيعلم الــناس جميعا: أن من فارق التوحيد منهم وتلبس بالشرك دلّ النص الشرعي على كونه شركا خارقا للتوحيد فإننا لا نتردد لحظة واحدة في اعتباره مشركا كافرا بالله العظيم , ولا حجة له عــندنا بجهل أو سوء فهم أو قلة علم ومن زعم عذره بجهله في هذا الحال فهو سفيه لا شك في فــساد عقلــه أو ضلال معتقده بل بلا شك عندنا أنه أعتى من عتاة المرجئة , وأن قوله ذلك هو فساد لدين الله وواقع الإسلام ورجاله والحركة الإسلامية من أي طعن يغمده أعداء الله فينا .

فاتقوا الله يا قوم , وتأملوا حالكم ومقالكم , وانظروا من أنتم ؟؟ وحذار أن تتلاعبوا بأقوال الفقهاء , أو تتلذذوا بالكلام , فالقضية ليست من الترف الفقهي , أو الخلاف السطحي , وإنما القضية كفر وإيمان شرك وتوحيد , جاهلية وإسلام , فاتقوا ربكم وراجعوا فهمكم ودققوا نظركم واصدقوا الله يصدقكم , وانصروا الله ينصركم .

هذا ما أردنا تبيانه في هذا الباب , وقد أحكمناه وفطمناه – بفضل الله – بما لا يبقى ريبة لمرتاب، ونتكلم بعد ذلك إن شاء الله في الباب الثالث من هذا البحث في بيان عدد من القضايا والتصورات المرتبطة بقضية العذر مما حدث فيها الخلط وسوء الفهم , فما من شأنه أن يؤدى إلى خلط في فهم قضية العذر برمتها , والله تعالى نسأل السداد والتوفيق .

الباب الثالث : تصورات فاسدة

تكلمنا في البابين السابقين – بفضل الله وعونه –عن تحديد وضبط جوانب قضية العذر بالجهل وأصوله ,وبينا ما وقع فيه مخالفونا من الخلط واللبس الخاطئ والمتعمد في جوانب القضية ومنازلها وفرقنا بوضوح كامل بين ضبط الأحكام في ظاهر الحال وبين مسألة العذاب والعفو في

الآخـــرة , وبينا كذلك أن الأحكام المتعلقة بواقع ما قبل الرسالة شيء وواقع ما بعدها شيء آخر, وإن كانـــت الصفة العامة واحدة للمشركين قبلها وبعدها كما وضحنا إلا أن ما بعد الرسالة تنفرد بأحكام خاصة وضوابط زائدة عما قبل الرسالة, وتكلمنا عن معنى سوء الفهم لمعنى الحجة وكيف تقـــام والـــشرط في ذلك , ثم بينا التحديد الشرعي الصحيح لجميع هذه القضايا وأقمنا الأدلة على ذلك.

وبذلك نكون بفضل الله قد أحطنا أركان القضية في البابين السابقين , وبقي معنا في هذا الباب أن نتكلم عن عدة مفاهيم وتصورات متعلقة بقضية العذر بالجهل أيضا ,مما وقع فيها الخلط العجيب وسوء الفهم الفاضح عند مخالفينا خاصة. وللأسف المر فقد وجدت بعض أصحابنا ممن يرفضون القـــول بالعذر في واقع اليوم , وجدتهم غير ضابطين لبعض تلك المفاهيم والتصورات على الرغم من خطورتها وتأثيرها على جوانب كثيرة من طبيعة العمل للإسلام , بصورة جعلت أن لا مفر من التعرض لهذه المفاهيم وتفصيل الكلام فيها, كقضية الضلال والإضلال وصلتها بمسألة إقامة الحجة ثـــم صلتها بقضية العذر برمتها , وكذلك موضوع الإعراض عن الهدى وهجر الكتاب وصلة ذلك بقـــضية العـــذر بـــرمتها , وكذلك موضوع الإعراض عن الهدى وهجر الكتاب وصلة ذلك بقضية الحجة وصفتها و إقامتها والشرط فيها وكذلك مسائل الدعوة والحجة والاستتابة كمعاني ضرورية التحديث والفهم وصلتها بموضوع العذر فمثل هذه التصورات وجدت فيها ما تحار فيه العقول من مفاهـــيم لدى بعض رجال الحركة الإسلامية أو المنتمين إليها أو المتصدين للذود عن هذا الدين بـــصورة تفسد هذه الحركة ومقومات منهجها في العمل بل ويفسد الناس أنفسهم ، ويزين لهم ما هم فيه من الجاهلية والضلال .

وقـــبل أن نـــبدأ بعـــرض هذه المفاهيم وتحديدها في حكم الله وشرعه وضبطها في واقع الحركة الإســـلامية ، وواقـــع حركة الناس اليوم أود أن أقول : أن من يتأمل طبيعة دين الله وعلى وجه الـــتحديد في فهم وتحقيق وضبط وتنزيل الأحكام الشرعية على منازلها الصحيحة أقول من يتأمل طبـــيعة هـــذا الـــدين يعلم أن أخص خصائص منهجه فيما قدمنا هو خاصية الحركة فان أحكامه وتوجـــيهاته وتصوراته وشرائعه وقيمه وأخلاقياته تمثل كل ما يمس حياة المسلم و واقعه وعلى المـــسلم أن يعـــود فـــي ذلك وفي كل حركة له و سكنة إلى حكم الله وعليه على وجه التسليم و الإذعان والرضا الكامل ، من هذا التنبيه لذلكم المعنى ، نخرج إلى معنى آخر يرتبط به أيما ارتباط . وهو أن الأحكام الشرعية والتوجيهات الربانية في هذا الدين لا تنزل من فراغ و إنما تنزل على واقع محدد لا تعمل إلا فيه بضوابط وحدود وضعها الله سبحانه وتعالى لهذا الواقع ، وانه لو حدث خلـــط أو اضـــطراب في تحديد هذا الواقع وضبطه لحدث الخلط والفساد في تطبيق أحكام الله و إنـــزالها علـــى مـــنازلها ، والمـــسلم في دعوته وبيانه وحبه وبغضه ، وولائه و برائته وعزلته واتـــصاله وجهـــاده ونصرته ، وعونه وخذلانه ، في كل ذلك هو أحوج ما يكون إلى تحديد واقعه

وواقع الأحكام التي يحتاج إليها في حركاته ومنهاج حياته حكاما ومحكومين , مجتمعات وأفرادا, هيـئات ومؤسـسات أحـزابا واتجاهات, فلسفات وعقائد , في كل شيء يحتاج إلى ضبط وتحديد للواقـع لكـي يحسن تنزيل الأحكام على منازلها , وليس إنزالها على غير منازلها , أو افتراض تصور فقهي نظري مجرد , من غير ما ربط بواقعه الذي يعمل فيه وهل يجوز تعديته لغيره أم لا ؟

أريـد أن أقول : إن ما نراه اليوم من التخبط والضلال الذي يصيب بعض الطوائف المنتسبين إلى الحـركة الإسلامية هذه الأيام ممن لا يدرون كيف يبدؤون ومن أين , ولا كيف يسلكون , ولا إلى أين يذهبون ؟؟؟

أقول : أن سبب ضلال هؤلاء الذي أضحى واضحا الآن , هو أنهم يفتقرون إلى أخطر مقومات هذا المنهج في الحكم والفهم له , وهو ضبط واقعه الذي يتحرك من خلاله , ومن تأمل واعتبر قصور بعـض الطوائف وفهمهم لقضية العذر بالجهل مثلا والتي نحن بصددها والأحكام المتعلقة بطبيعة علاقـة المـسلم بنظم الحكم المختلفة ,أو مسألة العزلة وأحكامها , أو قضية الجماعة المسلمة و الإمـام والخلافة أو قضية الحاكمية والتشريع والتي أصبحت بقدرة قادر مجرد خلاف فقهي حول فهم آية في سورة المائدة .. أو قضية النفير في سبيل الله وما يتصل بها من أمور الهجرة والقتال و العمل الحزبي أو الإعلام أو الثورة الشعبية أو حرب المدن ونظام العصابات المسلحة ونحو ذلك من المتعلقات .

أقـول : من تأمل قصور فهم بعض الطوائف لهذه المسائل كمثال لو وجد صدق ما نقول ، من أن اصـل الضلال فيها والتخبط هو القصور والعجز وسوء الفهم لطبيعة واقع الأحكام التي اعتقدوها وارتأوهـا حقا ورشدا وليس من الفقه في شيء أن تأتيني بعدد النصوص أو أقوال الفقهاء تقول أن العذر بالجهل أمر قطعي في الشريعة , أو أن علاقة المسلم بالحاكم علاقة طاعة في المعروف فان ظلم وبغي فلا طاعة ولكن لا منابذة و إنما القول اللين لعله يذكر أو يخشى أو أن ابن عباس قـال لقـوم احـتجوا بآية المائدة : {...وَمَن لَّمْ يَحْكُم ... } المائدة45 ، فقال ليس بالكفر الذي تذهبون إليه , أو أن النصوص جزمت بشرعية العزلة بل فرضيتها وان خير مال المسلم غنم في شعفة من الجبال أو أن القتال ورفع السيف فرض قائم على المسلمين إلى قيام الساعة وغير ذلك و إنمـا الفقـه والعلم والحكمة أن تحدد لي الحكم الشرعي النظري لقضية مع تحديد واقعه الذي يعمل فيه وشروطه ومعالمه وبذلك نعلم أن جهل الناس قبل الرسالة غيره بعد الرسالة , وجهل من حال بينه وبين العلم بالشرع حائل خارجي يقيني غير جهل من توفر عنده العلم فأعرض وتولى , وكـذا فـي الحاكمـية , فحـال من قضى بين ولديه فظلم ولم يعدل عامدا غير من شرع شرعة يتـصرف بهـا فـي جزء من كون الله من غير سلطان من الله بل مع رفع شريعة الله عن الحكم والهدايـة وكـذا فان اعتزال الفتنة واجتنابها في حال دار الإسلام , غير أمر العزلة في حال ديار الكفـر وفتنة الكافرين , وغير ذلك . ومن خلال فهم المسلم لطبيعة هذا الدين في حركة واحتكاكه

بواقعه والنفير في سبيل الحق , يستطيع أن يحدد الواقع الذي يتعامل معه ويحدد سبيل المجرمين كمـا أمـر الله تعالى , ويفصله بوضوح عن سبيل المؤمنين ومن ثم فاته وقتئذ يستطيع أن يفهم الحكم الشرعي الذي قضت به النصوص الشرعية في كذا وكذا من واقعه على وجه التحديد .

(في ظلال القرآن سيد قطب حيث تكلم الشيخ بكلام طيب حول هذا المعنى عند تفسير قوله تعالى : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) .

أقـول : ولعـل هذه النقطة بالذات توضح لنا سبب هذا الجلاء والوضوح والشمول والعظمة في التصور الإسلامي الصحيح في قضايا الواقع عند الشيخ محمد ابن عبد الوهاب والشيخ سيد قطب , كأوضح علمين من أعلام الحركة الإسلامية في تاريخها الحديث والمعاصر .

الـضلال والـضلالة ضـد الهدى والرشاد , و أضله جعله ضالا , قال أبو عمر : واصل الضلال الغيبوبة , وضل الكافر إذا غاب عن الحجة , أهـ . لسان الرب (ابن منظور– مادة : ضلل).

و أول ما نبدأ الحديث عنه هو قضية الضلال والإضلال ومفهومها وتصورها الشرعي ومن ناحية الإجمال والعموم فقد وردت النصوص الشرعية تحدثنا عن الذين كفورا والذين أشركوا , وقسمتهم إلى قسمين : أئمة وتابعين , سادة ومقلدين , و أئمة الضلال وسادتهم غالب حالهم العناد مع العلم والمكابـرة والكـيد للحق و أهله والضالون ممن تابعوهم أو قلدوهم , إنما هم أشبه بالبهم حيثما قـادوهم انقادوا وجماهيرهم لا تفهم الحق , ولا يتضح لهم ما هم عليه من الباطل والكفر وفساد الـدين بـل هـم يحسبون أنهم مهتدون وأنهم الأحسن صنعا والأهدى سبيلا , وما ذاك إلا بسبب تضليل سادتهم لهم وتلبيس أمر الهدى عليهم , وتهويشهم على الحق وأهله وعلى دعاته وأئمته , ولي ألسنتهم بالكلام , والطعن في الدين وبث الشبهات حوله وفيه .

ثـم بينت النصوص القرآنية أن هؤلاء الأئمة رؤوس الضلال والضالين الدين تابعوهم كلاهما في النار وكلاهما يعذب , وكلاهما يرجع اللعن لصاحبه في النار , وكلاهما يتبرأ من الآخر ومن وزره , ولـم يأت نص شرعي واحد ,بين أن الضالين أو بعضا منهم لا يعذب لأنه معذور بتلبيس أئمة الـضلال علـيه أو كبراء قومه وسادتهم بحيث ألبس عليه الفهم و أشكلت عليه الآيات فضل عن الهدى وحار عن السبيل , قال تعالى : { يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْـنَا الرَّسُولَا{66} وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{68} الأحزاب .

فالـضال والـذي أضله كلاهما في النار وكلاهما من الخاسرين , وكلاهما يرجع اللعن والتثريب لـصاحبه , قـال تعالى في سورة سبأ : {... وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ } سـبأ31 ، فانظـر هداك الله إلى هؤلاء الضالين المخدوعين من المشركين المقلدين ، أنظر إليهم يقولـون لـسادتهم وكبـرائهم الـذين ألبسوا عليهم الدين , وهوشوا لهم الحق { لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا

مُؤْمِنِينَ } وما جعلها الله عذرا لهم تنجيهم من النار والعذاب وهو أمر واضح كل الوضوح بين كل البيان وما علمنا آية في كتاب الله ولا حديثا صح عن رسوله عليه الصلاة والسلام ,بين أن أحد الكافرين الضالين معذور بتضليل علماء السوء وكبراء قومه له .

فإن تعجب فعجب لما حكاه " الشيخ " ابن باز وهو من أهل الحجاز حيث زعم أن العلماء اختلفوا فيمن أتى بشرك ـ سماه هو بنفسه عين شرك أبي جهل وأشباهه ـ يقول : اختلف العلماء هل يكفر صاحبه أم ينتظر حتى تقام عليه الحجة وحتى يبين له , على قولين : أحدهما : من قال هذا يكون كافرا كفرا أكبر لأن هذا شرك لا تخفى أدلته , والقول الثاني : أن هؤلاء يدخلون في الجهل وعندهم علماء سوء أضلوهم ... فسبحان الله , ما هذا الكلام الذي ابتدعته تصورات الرجال في آخر الزمان ؟؟؟ وأين هو الدليل عليه من الكتاب والسنة ؟؟؟ .

سبحان الله ... وهل نعذر بذلك جماهير المشركين من اليهود والنصارى الآن , وكذا جماهير الملاحدة وممن يسمون بالمثقفين العلمانيين , وجهلهم بجحد القرآن وقضايا الإيمان بل وأحيانا ذات الباري سبحانه , وهل نعذر بذلك جماهير المشركين من أهل مكة ومن حولها ممن بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم , وهل نعذر بذلك جماهير الكافرين من قوم نوح ولوط وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وعيسى وموسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ؟؟؟

فكل ذي بصيرة ودين يعلم أن هذه الجماهير كانت مقلدة , وتبعا لأئمتهم وكبرائهم , ممن هوشوا على الحق وأهله وضللوهم عن الهدى وصدوهم عن الصراط المستقيم .

سبحان الله ... وهل نعذر من يقولون لأئمتهم يوم القيامة : { لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ } وهل نعذر من يقولون يوم القيامة : {... أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ } فصلت29 ؟ وأين لهم من قول الله سبحانه وتعالى قاصا حالهم يوم القيامة: { قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ } الأعراف38 .

سبحان الله ..إن الأمر أوضح من أن نتقصى له الآيات والأحاديث , إن الأمر أجلى وأبلج وأبين من أن نعيد تبيانه , ولكنه العي عن معاني الشريعة وتصوراتها المفصلة بالوحي الإلهي والانسياق وراء تصورات العقل المجرد , والهوى المحض .

هذا تأخذه الشفقة والعاطفة حينا فيستثقل ويستبعد أن يكون هؤلاء المشركون الذين أضلهم أئمة السوء والفقهاء المأجورون يستبعد أن يكونوا كافرين معذبين هكذا بغير دليل ولا هدى ولا كتاب منير، و "للشيخ" ناصر الألباني شريط مسجل تعرض فيه لهذه القضية وأفتى فيه بكلام عجيب تقشعر منه الأبدان, ولم يأت فيه بدليل شرعي واحد على كلامه وذاك تأخذه الأريحية حينا فيصول في أهل الإسلام ويجول , طعنا بكل قبيح في القول , ورمي بالبدعة والخروج .

و أنا عند قولي: فليراجع من شاء كلام هؤلاء القوم في كل ما كتبوه وكل ما نقلوه وكل ما سجلوه , وليبحث في هذا كله عن دليل واحد من كتاب الله أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم وبإذن الله سيعود حين يعود ليشهد بصدق كلامنا , من أنهم لا يملكون دليلا واحدا على تصورهم الفاسد في هذه القضية وافترائهم على شرع الله ودينه , و إنما كل كلامهم إنما هو احتكام للرأي المجرد, والتجاء للهوى والتلذذ.

وهناك نقطة هامة وردت في كلام " الشيخ " ابن باز السابقة ويخلط فيها الناس كثيرا وهي قوله : " لابد أن يبين لهم ويوضح لهم " أرسل بعض الاخوة رسالة يستفتي فيها " الشيخ " عبد العزيز بن باز عن موضع العذر وعدمه فأفتى " الشيخ " بأنه ليس هناك شيء اسمه العذر بالجهل في التوحيد من العجب أنه لما عرضت هذه الفتوى على أحد الاخوة الأئمة في موضوع العذر أخفاها ومنعها عن صاحبها لما طالب بها وقال إنها ستحدث فتنة... فانظر وتدبر!!

فثم فارق هائل بين إقامة الحجة وانقطاع العذر عن الكافرين , وبين فرضية الدعوة والبيان والبلاغ والأعذار والإنذار على دعاة الحق فإن هذا التبيين والتوضيح هو فرض دائم على رجال الحق في كل ساعة وفي كل يوم , مرة واثنين وألفا بل وتسفيه أئمة الضلال وتعرية مفاسدهم وإظهار ضلالهم وفساد منهجهم على الدوام والاستمرار , هذا شيء وكون الحجة مقامة عليهم شيء آخر ,قال تعالى : { وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } الأعراف164 ، فهم أصلا قد قامت عليهم الحجة بما يستوجب إهلاكهم وعذابهم ومع ذلك ففرض قائم علينا أن ندعوهم ونبين لهم ونزيل لهم ذلك الركام الذي وضعه المحرومون على الحق ودين الله , لا لأنهم معذورون قبل ذلك ولكن :

{ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } ومن تأمل هذه النقطة – قضية الإضلال – علم أن سبب سوء فهم الناس راجع إلى خلطهم بين قيام الحجة ببلوغها وبين فهم الحجة ورحم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب حيث يوضح أصل الإشكال الذي وقع فيد قوم بنفس هذا الفساد في التصور عند مخالفينا , يقول الشيخ : (ولكن اصل الإشكال أنكم لم تفرقوا بين قيام الحجة وبين فهم الحجة , فإن أكثر الكفار والمشركين والمنافقين من المسلمين لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم كما قال تعالى : {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً } الفرقان44 , وقيام الحجة نوع , وبلوغها نوع , وقد قامت عليهم الحجة , وفهمهم إياها نوع آخر , وكفرهم ببلوغهم إياها وإن لم يفهموها) ا هـ . كلامه رحمه الله .

سبحان الله ... لقد وضع الرجل يده على موطن الداء , وموضع الجرح وأرى و ربّي ما قاله هو الحق كما هو مشاهد الآن من بعض المنتسبين للعلم والدين , وانظر إلى أحدهم ومبلغ فهمهم للقضية , وهو يعذر عباد الحسين والبدوي وغيرهما الذين هم بإقراره خلف أبي جهل وابن ربيعة , انظر إليهم يعذرونهم بحجة أنهم قد ألبس عليهم الفقهاء المأجورون بقول الله تعالى :

{... وَابْـتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ ...} المائدة35 , ففسروها لهم على أنها عبادة الحسين والبدوي , بل ويحتج بذلك على صحة مذهبه – انظر سعة رحمة رب العالمين – فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ألا فليعلم هذا , أن هؤلاء المشركين والذين أضلوهم وزينوا لهم ما هم فيه من الشرك كليهما في الـنار , التابع في الضلال و إمام الضلال , وليعلم هذا و أمثاله , أن في كل قرية أكابر مجرميها يمكـرون فيها , وفي كل قرية أئمة يدعون إلى النار وأن هؤلاء إنما كل همهم وشغلهم هو فساد ديـن الله علـى الـناس وتزويـر الكـلام لهم ,والتأويل الباطل للحق ,والطعن في الحق وأهله ,والتهويش عليهم , فمن تابعهم وضل عن الهدى فهو معهم في الخسران المبين والعذاب المهين , ولا حجة لهم عندنا ولا عند الله , قال تعالى:{..لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ } الأعراف38 .

واعلمـوا يـا قـوم أن ثمة فارقا هائلا بين إقامة الحجة , وبين إفهامها وبتحديد أدق , بين قيام الحجـة وبـين دفـع الشبهات أو تعرية حجج المبطلين وأئمة الضلال, ولتعلموا أن أهل الضلال يختـرعون كـل يوم شبهة , ويبثون كل يوم ضلالة وليست حجة الله متوقفة على لهو المبطلين وعبـثهم و إنما حجة الله على الناس قائمة بمحض بيان الله في كتابه كما قدمنا أما دفع الشبهات ونحوها فهي أمور من متعلقات الدعوة إلى الله والأعذار للحق ورحمة الله بالعباد ورحمة المؤمن بالناس وحرصه على هدايتهم وإخراجهم من الضلال وإنحائهم من النار بعون الله وتوفيقه :

{ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }.

ولقد أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجة على أبي جهل وأتباعه من بدء دعوته , وانقطع يقيـنا بالجهالـة– لو صح لهم عذر– ومع ذلك ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه ومن تابعـه, ويبـين لهم و يحرص على هدايتهم أياما وأياما , شهورا وشهورا , سنينا وسنينا , وما علمنا قط أن عاقلا من المسلمين فضلا عن عالم فيهم زعم أن الحجة لم تكن قائمة على أبي جهل وأتباعه هذه السنين الطويلة –أكثر من ثلاث عشرة سنة – قبل كل هذا البيان والجهاد المرير في الدعوة والنصح والإرشاد والتذكير , فالاستمرار في الدعوة والبيان والجهاد باللسان عموما ودفع الـشبهات عن الحق شيء , و إقامة الحجة شيء آخر –وهذه نقطة سنوضحها بعد حين إن شاء الله – وإني لأعجب أن يقول رجل عاقل بأن الله تعالى قد بعث أئمة الهدى ودعاة الحق ليرحم بهم مـن عـبد الطاغـوت وينجـيهم من الهلاك والخسران المبين وهو في ذات الوقت يصفهم بأنهم معذورون معفو عنهم , مغفور لهم , لا وزر عليهم , ومن نار جهنم هم ناجون , وفي رحمة الله وجناته هم خالدون وأي رحمة يريدها لهم بعد ذلك وأي نجاة لهم بعد ذلك ؟؟؟

أريـد أن أقول : أن على أصحاب هذا التصور الفاحش أن يراجعوا عقولهم و أفهامهم , ويمسكوا علـى ألسنتهم خيرا لهم وللناس , ولدين الله إن كانوا حقا قاصدين الخير لهذا الدين، ولقد وصف الله تعالـى عامـة المـشركين الخاسـرين الـضالين بقوله :{ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُـونَ } الأنبياء24 ، فعامة أهل الشرك لا يعلمون محض الحق , ولا يفهمون حجة الله ولا

يفقهــون لله حديــثا , إما لإضلال سادتهم وكبرائهم لهم وتلبيسهم الهدى عليهم وتهويشهم على الحــق وأهلـــه وحججه وبث الشبهات حوله وفيه والصد عنه , وإما لإعراضهم عن سماع الحق وتأمله وفهمه ابتداء وهجرهم كتاب الله وأن لهم أعمالا من دون الحق هم لها عاملون , كما هو حال غالب كفار هذا الزمان , قال تعالى :{ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } الأعراف179 .

ولقــد ســبق وبيــنا لك سقوط وبطلان اشتراط فهم الحجة في إقامتها فاعلم أن هذه النقطة التي نــتحدث عنها الآن مرتبطة بهذا الشرط الفاسد الذي شرطوه , فهم يعذرون من لم يفهم حجة الله بــسبب تــضليل علماء السوء – إن صح التعبير– أو الفقهاء المأجورين , فإذا ثبت عندك بطلان اشتراط الفهم أصلا فقد ثبت عندك فساد تصورهم في هذه النقطة كذلك بالإضافة إلى ما قدمناه فيها من دلائل قاطعة .

ولقــد أحــسن الشيخ ابن عبد الوهاب ــ رحمه الله ــ حيث احتج عليهم بقول الحق سبحانه: {أَمْ تَحْــسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً } الفرقان44 ، فهــي دافعة – بفضل الله – لفهم المبطلين في هذه النقطة , وما أبين كلام الله , وما أوضح حجة القرآن إلاّ على من طبع الله على قلبه وختم على سمعه وبصره , نسأل الله العصمة والسلامة .

قــال تعالى : { وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً{30} وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً{31} الفرقان .

إن هناك حقيقة مرة يحاول أصحاب العذر بالجهل أن يستخفوا بها , ويتجنبوا الكلام عليها , ولكنا بــإذن الله كاشفون عوارهم فيها وفاضحون تخبطهم في فهمها, وذلك أن القائلين بالعذر في هذا الواقع وهذا الزمان لا يعذرون الكافرين اليوم بجهلهم كما يدعون,وإنما هم في الحقيقة يعذرونهم لإعراضـــهم عن العلم وهجرهم كتاب ربهم , وهذه النقطة في واقع الأمر من النقاط الفاصلة بيننا وبيــنهم في فهم هذه القضية – قضية العذر – وامتلاك التصور الصحيح لها في واقع مجتمعات الــيوم بالــذات , فكــل ذي بصيرة ودين يعلم أن عامة الكفار في هذا الزمان إنما يحيون كالبهم والأنعــام معرضــين عــن معرفة الحق هاجرين لكتاب ربهم لا يعرفونه إلا كتميمة يعلقونها في ســيارتهم او تحفــة أثرية في " صالوناتهم " أو طقوس للحزن عند النواح على الميت أو عرف دارج عــند افتــتاح حفل داعر أو زينة من زينات من الأطعمة أو المشروبات التي هم في حقيقة أمرهم لا يعبثون إلا من أجلها كالبهم والأنعام بل أضل سبيلا .

انظــروا إلــى هــذا الــذي شب وشاب قاطعا عمره وزمانه في تعلم الشرائع الوضعية وأسسها ومصادرها واتجاهاتها والخلافات المذهبية بين هذا وذاك ونصوص الدستور ,ثم نصوص القانون

المدني والجنائي وغيرهما مما لو بذل معشاره في تعلم دين الله لصارفيه إماما , ثم هو بعد يأتي بالشرك الصراح فتجد من يقول لك إنه معذور له حجته !!

انظروا إلى هذا الذي أفنى عمره في تعلم فنون الموسيقى ومدارسها وآلاتها والفوارق بين أنغامها ومقاماتها والدراسات المقارنة في الموسيقى الغربية والشرقية , ورواد الاتجاهات المختلفة في كل منهما والتاريخ الدقيق لمراحل تطورها , وعلم الله ميسور لديه حيثما أراده وجده , ولكنه أعرض واتبع هواه وكان أمره فرطا فيقع في الكفر المبين ضرورة من غير ما وعي منه كناتج طبيعي فتجد من يقول لك إنه معذور له حجته عند الله .

انظروا إلى هذا الذي قطع زمانه و أفنى عمره في دراسة الفكر الفلسفي الغربي ومذاهبه المختلفة وتاريخ تطور هذا المذاهب ومصادرها وطبيعة نشأتها , وأهدافها وأصولها العامة والتفصيلية وأئمتها وروادها, والدراسات المقارنة بين كل منهم وبيان نقاط الاتفاق و الاختلاف ثم هو بعد أجهل من الدواب والأنعام في معرفة دين الله والحق المنزل وما يصير به العبد مسلما وما يخرج به من الإسلام , كأبسط فروض العلم الشرعي نابذا كتاب الله وراء ظهره كأنه لا يعلم أو لا يراه , ثم يسقط ضرورة في شرك أو كفر فتجد من يقول له عذره وحجته عند الله .

انظروا إلى هذا الذي قطع عمره وأفنى نفسه في دراسة اللغة العربية وآدابها وفنونها ومراحل تطورها ودراسة ديوان شعر العرب في الجاهلية وبعد الإسلام , والدراسات المقارنة بين الهذليين وغيرهم , وبين العذريين وابن أبي ربيعة ,والخلافات المذهبية بين أنصار الشعر التقليدي والشعر الحديث ,وحجج كل الفريقين ,والدراسات الدقيقة بين الأصوات في العربية والأصوات في اللاتينية والسريانية والعبرية والهندوكية وغيرها ,لاهثا وراء وظيفة حكومية مرموقة, أو المكانة والاجتماعية والثقافية , ثم هو بعد لا يعلم من دين الله إلا بعض الشكليات والشعائر , وما يدري ما الكتاب ولا الإيمان فإذا ما وقع في سقطة كفر وشرك تجد من يقول لك إنه معذور له حجته عند الله !!

انظروا إلى هذا الذي شب وشاب عاملا في الحقل السياسي بارعا في كل كذب رائعا في كل خديعة وتزوير ، هائلا في كل نفاق ورياء ، غارقا في الانتخابات البرلمانية صغيرها وكبيرها، هي عمره وحياته ومبدؤه وغايته ، عالم بأسس الدعاية ، ضليعا في جمع المال على الدوام بكل سبيل من اجلها ، لاهثا وراء المناصب الحزبية والسياسية والمقاعد البرلمانية ثم هو بعد لا يقدم لشرع الله معشار ما يقدمه في ضلاله وتجده يتفوه بأفحش الشرك ، وينادي بأقبح المعتقدات وأفسدها ويتلبس بأوضح صور نقض التوحيد ، فتجد من يقول لك انه معذور له حجته .

انظروا إلى تلك المثقفة ، معرضة عن كتاب الله وهديه ونوره ، لاهثة وراء ثقافات الغرب وكتاباتهم ، وتقطع لها أحيانا البحار الواسعة والجبال الشامخات والسيول والوديان لتقف على مكنوناتها وتتتلمذ على ردودها ، وتنهل من منابعها الأصلية وتتقن لغتهم بأسرع ما يمكن ، ناظرة

مـــن علـــى شريعة الله ، واسمة شعائر الحق بالجمود والرجعية ساقطة من شعر رأسها إلى آخر قدميها في الضلال المبين ، فتجد من يقول لك إنها معذورة لها حجتها عند الله .

انظـــروا إلى عامة كفار هذا الزمان ممن تيسر لديهم كتاب الله وكتب السنة وكتب التفسير وكتب علوم اللغة والأصول وغيرها من جوامع الفقه ، يصلون إليها بأقل جهد وأبسطه ، لم يشهده زمان قـــبلهم بهـــذه الصورة ، انظروا إليهم يجهلون أبسط حدود الله في معاني التوحيد ونواقضه , و عامتهم يعبدون غير الله صراحة كما يقر مخالفونا بذلك ولا ينكرون,انظروا إليهم بهذا الحال وهم معرضون عن النور والحق وهم بعد أبرع الناس في معرضة أدق قوانين الكرة والألعاب الرياضية ودوراتها وبطولاتها وأنديتها , منازلها في البطولات المختلفة , فضلا عن الإحاطة الهائلة بالأفلام الـــسينمائية ومخـــرجيها وأبطالهـــا وممثليها وتقصي أخبارهم ومواليدهم و تاريخهم الفني وأهم أعمـــالهم فـــضلا عـــن الإلمـــام الكامل والمفصل ببرامج الإذاعة والتليفزيون , ومواعيد الأفلام والتمثيليات ,ومباريات الكرة ذلك مبلغهم من العلم , ولهم أعمال من دون الإسلام هم لها عاملون ... انظروا إليهم ثم أعجب ألف مرة لمن يقول لك : إنهم معذورون بجهلهم , **فليت شعري أليست هذه الأصناف كلها هم من تلقاهم وتسمعهم كل يوم وتجري عليهم أحكام الله انظروا إليهم ودققوا النظر في حالهم** , ثم تأملوا قول الحق سبحانه وتعالى مبينا صفة الراغب في الهدى الذي لو صح لأحد عذر لكان له يصفه بقوله: { وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى{8} وَهُوَ يَخْشَى{9} فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى {10} عبس ، وتأملوا قول الله سبحانه يصف قاصدي الرضوان والهدى : { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّـــذِينَ يَدْعُـــونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ.... } الكهف28 , ثم قارنوا بين هؤلاء المتقـــين وبـــين هـــؤلاء الفسقة المجرمين الذين مردوا على الكفر واشرب الشرك في قلوبهم , وانشغلوا بالدنيا ومفاتنها وشهواتها { ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ... } النجم30 .

أريد أن أقول : أن الذي يجب أن يعرفه الناس جميعا , و أصحاب هذا الدين على وجه الخصوص , هو انه ليس من مقتضيات دين الله أن تدخل الآيات في أسماع الناس وعقولهم وقلوبهم كي تقام الحجة , وإنما التكليف الشرعي هو تيسير هذا الهدى أمام الناس , و إبلاغ الحجة لهم وهي كتاب الله , وهو ميسر بتقدير الله و رحمته, ثم هم بعد ذلك صنفان أمام معطيات هذه الحجة , إما مقبل عليها راغب فيها حريص عليها لا يقدم عليها غيرها , و إما معرض عنها هاجر لمصدرها مفتون بغيرها مهموم بدونها , سواء أضله عنها شياطين الإنس والجن أو فسق نفسه واتبع هواه . وكلا الصنفين قامت عليه الحجة , هذه هي طبيعة منهج هذا الدين في بيانه ,قال تعالى : { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُـــرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ } القمر17 , ولذلك يجب أن يكون واضحا في أذهان أصحاب هذا الدين أن أمر قيام الحجة على الناس اليوم أمر مقطوع فيه مفروغ منه لا مجال للبحث عنه أصلا , ولا يوجد هناك الآن من صفته : لم تقم عليه الحجة ومعذور بجهله في توحيد الله تعالى و إنما هنا – فقط من صفته – , معرض عن الشريعة , هاجر كتاب الله ودراسته وتعلمه كما قدمنا كما

وصــفهم الله تعالــى : { وَإِذَا قِـيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَـصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{61} فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً{62} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً{63} النساء .

نعـم هــذا هــو حــالهم وهذا هو موقفنا حيالهم كذلك : { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُـسِهِمْ قَـوْلاً بَلِيغاً } ويقول سبحانه وتعالى مبينا حال من قدمنا بدقة : { وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً } الكهف28 , ومــن أعظم وأجلّ ما نصح في هذه القـضية مــن آيــات الله قوله تعالى : { فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْـيَا{29} ذَلِـكَ مَـبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى{30} النجم .

ســبحان الله : فأين هم الأفاكون ؟ ورب الكعبة إن هذه الآية من سورة النجم محيطة بكل جوانب القضية كلها بمنتهى الروعة والجلاء ,وكل جزء منها هو بيان كامل لركن من أركان القضية :
{ تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا } , { لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } , { ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ } ، { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى } ...

أيهـــا الناس : إن بيان الله وهديه لهو أحق بالاتباع من عواطف الرجال وأهوائهم ورأيهم المجرد لمن أراد أن يستقيم على السبيل أو يستقيم له الطريق أو يتضح له المنهج قال تعالى : { ... قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{15} يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{16} المائدة .

وأعلمــوا أنـــنا هــنا أمام قضية جديدة تماما ومختلفة كل الاختلاف عن التصور الفقهي النظري المجــرد فـــي البابين السابقين , إننا هنا أمام قضية " العذر بلا إعراض والتولي" على وجه الدقة والــتحديد, ومهمـــا كابر القائلون بعذر كفار هذا الزمان , ومهما لبسوا على الناس القضية فهم مفضوحون بإذن الله لا محالة , حيث أنهم لا يعلمون في هذا الواقع القائم الآن قضية العذر بالجهل كما درجت في كتب الفقه , وبحوث الأئمة وإنما هم يعلمون قضية أخرى تماما لا صلة بينها وبين القضية الأولى المطروحة في كتب الفقه ..

إنــنا أمـــام قــضية قوم هجروا كتاب الله وتولوا عن الذكر وهو بين أيديهم وقصدوا الدنيا حتى أصبحت هي علمهم ودينهم والحكم لله العلي الكبير ..

ولقــد حــدث وكتب أحدهم ــ ممن يقولون بالعذر وهو إمام فيهم ــ . إلى " الشيخ" محمد صالح العثيمـــين وهو مفتي هيئة التوعية بالحج , كتب إليه يستفتيه في القضية فقال له الرجل بالحرف الواحد أما اختلاف كلام العلماء في ذلك ــ أي قضية العذر ــ فمحمول على التفريط وعدمه , فمن

فــرط في طلب الحق فهو مقصر ينتفي عنه العذر , ومن لم يفرط فليس منه التقصير فهو معذور والله اعلــم. (انظــر سعة رحمة رب العالمين) وبغض النظر عن مدى فهم الرجل لعموم القضية فالمــشاهد هنا هو تنبيهه لهم على ركن خطير فيها,وهو التفريط في طلب الحق, فمن فرط فليس بمعــذور,ولكــن صــاحبنا لــم يعتبر لكلام من كتب يستغيثه و إنما أخذ من كلامه ما تلذه نفسه ويـــستروحه هــواه ,وتغاضى عن صلب القضية في الواقع الحاضر , فيا ترى هل هؤلاء الفسقة الــضالون المنتسبون إلى الإسلام اليوم وهم ــ بإقرار مخالفينا ــ يعبدون غير الله , ترى هل هم حريصون فعلا على الهدى جاهدون في تعلم كتاب الله أو بالتحديد الرباني : { جَاءكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى } , حتى أجزتم لأنفسكم عذرهم بجهلهم توحيد الباري وعبادته ؟؟ .

هذا وقد نبه الإمام ابن القيم على ذلك التقسيم والضبط في فهم القضية في كتابه طريق الهجرتين عند كلامه عن تفصيل حال أهل الفترة , فأجاد في الشرح والبيان وليراجع كلامه من أحب , وإن كانــت القضية لا تحتاج مزيد من بيان , فهي واضحة وضوح الشمس في كبد السماء فمن اهتدى فلنفسه ومن عمي فعليها , والله نسأل العصمة والسلامة .

يقول الحق سبحانه وتعالى : { ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } النحل125 . ويقول عــز من قائل : { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَــن ضَــلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ{108} وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُــمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ{109} يونس ، و يقول سبحانه وقوله الحق والصدق : { كَيْفَ يَهْــدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَــوْمَ الظَّالِمِينَ{86} أُوْلَــئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ{87} خَالِــدِينَ فِــيهَا لاَ يُخَفَّــفُ عَــنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ{88} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ{89} آل عمران .

إن هــناك معنــى آخــر من المعاني الشرعية المتصلة بقضية العذر بالجهل , التي وضعها بعض الناس كأصول استدلالية في هذه القضية, وما ذاك إلا لسوء الفهم وفساد التصور لهذه القضية من حيث الأصل كما قدمنا , فكان كل ما بني على فاسد فاسدا بالضرورة , فهناك بعض من يتصدرون الدعــوة لهــذا الــدين وهم يخلطون في تحديد صفة وشرعية كل من : أمر الدعوة إلى الله وأمر الحجة و إقامتها , وأمر الردة, وموضوع الاستتابة ولو تعقل القوم هذه القضايا وأعادوا فهمهما والفــصل فــيها إلى حكم الله وهديه بما يفرضه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من تصور سليم كامل لهذا القضايا لهدوا السبيل , ولكنهم في غالب أمرهم يحتكمون إلى الرأي المجرد أو التقليد أو الهوى والتلذذ كما قدمنا .

ولكـــي تتضح القضية أمام أصحاب هذا الدين بصورة بسيطة , نأخذ شريحة من الأحكام الشرعية لنوضح موقع كل معنى من المعاني الثلاث منها .

صــح أن الله تــبارك وتعالى قال وقضى في كتابه الكريم : { لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَـــةٍ ... } المائدة73 ، فبالنسبة لأمر الحجة , فيثبت لنا أن الحجة الرسالية قائمة على جميع الـــناس لمحـــض وجـــود هذه الآية البينة من القرآن المجيد , ما دام كتاب الله ميسورا , وممكنا الوقـــوف على آياته لكل واحد , يستوي في ذلك من سمعها وطعن فيها لشيء في نفسه أو شبهة أو أضله بها مضل ,ومن أعرض عن سماعها ابتداء وهجر دراسة القرآن وتدبره ، ومن علم بها وشـــهد بصدقها ثم خالفها وعاند فيها استكبارا وعتوا , أقول : كل هؤلاء سواء من حيث الحجة قائمة عليهم بموجب وجود هذه الآية في القرآن الكريم الميسور لكل أحد, ثم يأتي معنى آخر هنا , وهـــو أن هناك الجماهير من الذين كفروا بموجب مخالفتهم للتوحيد في هذا الجانب لا يعلمون ولا يفقهون الحق , وعندهم الكثير من الشبه المضلة حول الحق بالتأويل الباطل والتهوين على الحق ودعاتـــه وغيـــر ذلـــك , فضلا عن التكليف الشرعي الواقع على دعاة الحق من الدعوة والبيان والإنـــذار والانتـــصار للدين , ولذلك يأتي هنا دور المعنى الثاني وهو الدعوة , فسواء الضالون والمقلـــدون أو أئمة الكفر ودعاته , ففرض قائم على المسلمين استمرار دعوتهم إلى الدين ودفع الـــشبهات وتذكيرهم بأيام الله , وتنبيههم إلى سماع آيات كتاب الله وتدبره , وتعرية مفاسد أئمة الـــضلال وتفنيد شبههم لا لأن هؤلاء الكافرين معذورين لأنهم لم تقم عليهم الحجة وإنما كفرض شـــرعي قـــائم بذاته وهو الدعوة في سبيل الله والجهاد باللسان والقول ذودا عن الدين وانتصارا للحق كما قال تعالى : { فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً } الفرقان52 .

ثـــم هناك معنى ثالث وهو أمر الاستتابة , فالذين كفروا بموجب هذا الحكم الإلهي ممن سبق لهم الحكم بالإسلام أو سبق دخولهم في دين الله هم قسمان بالنسبة لواقع حال الحركة الإسلامية , إما أنهم واقعون تحت سلطان المسلمين وحكم الله , وإما لا سلطان للمسلمين عليهم , وحكم ليس له الحاكمية العليا عليهم في واقع الحال , فإن كانوا واقعين تحت سلطان المسلمين وحكم الله , تنازع فيهم الفقهاء , البعض قال يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا ردة واحتجوا بظواهر نصوص التوبة , وبعضهم قال بل يقتلون ردة ولا يستتابون لعموم قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من بدل دينه فاقـــتلوه) – رواه الـــبخاري – ولـــم يفرض على المسلمين استتابتهم , وقالوا أنه لا يوجد نص قطعـــي يفـــرض على الإمام استتابة من كفر أو بدل دينه ، وحملوا نصوص التوبة على من بادر بالـــتوبة قبل قدرة الإمام عليه كما قال تعالى : { إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ...} المائـــدة34 ، و استأنسوا بفعل أبى موسى الاشعري مع الذي ارتد إلى النصرانية ، ثم إن الذين قالوا بالاستتابة اختلفوا ، منهم من قال الاستتابة فرض على الإمام المسلم ، وبعضهم من قال هي مـــستحبة ومستحـــسنة وليست فرضا ، وقالوا لا بأس بان يذكّره ويعظه وان يعيد عليه الكلام ،

وعموما فقضية الاستتابة سنتجنب الخوض في تفصيلاتها الفقهية هنا وتحقيق الكلام فيها لانعدام الواقع العملي لها الآن في مجتمعات اليوم حيث لا سلطان للمسلمين ولا حاكمية لشرع الله ودينه ، و إنما الناس اليوم تدين لشرع البشر وتصوراتهم فجحد الله حرية فكر ، و إنكار القران حرية اعتقاد ، والتنصر أو الردة عموما حرية دين ، والاستهزاء بآيات الله حرية رأي ، وغيرها مما هو مشاهد في واقع اليوم من أسماء ومسميات وتصورات مفروضة من شرع البشر و أهوائهم يستخف الناس بعضهم بعضا بها ،و إنما الشاهد هنا هو بيان أن الاستتابة إنما هي لكافر كفر كفرا بيّنا وحجة الله قائمة عليه أصلا ولكنها – الاستتابة – كالدعوة و أي فرد آخر قائم على المسلمين وضعه الله سبحانه عليهم كضابط لحركتهم ولو لم توجد استتابة لظروف الواقع أو ضعف المسلمين فهذا لا يمنع بحال أن من أتى بالشرك بعد إيمان هو كافر مشرك بالله تعاملنا معه هو تعاملنا مع المرتدين الكافرين .فأمر الاستتابة– لو صح كفرض – شيء وكون الحجة قائمة على الشخص بما يوجب إكفاره شيء آخر ،هذا تفصيل واضح لذي قلب فالمستتاب من الشرك هو كافر يقينا قبل الاستتابة ,وإنما نحن نستتيبه لكي نعيده من الكفر إلى الإيمان ثانية .

ولكني أود هنا التنبيه على نقطة هامة أخطأ في ضبطها وفهمها كثيرون وهي حادثة "قدامة بن مظعون"رضي الله عنه وشربه الخم. وباختصار أقول أن قدامة بن مظعون لم يستحل الخمر أصلا كما يزعم البعض لأن هذا كفر مجرد , ولا يخفى ثبوت حرمتها على مثل قدامة فلوا استحلها وأنكر حرمتها – حاشاه ذلك – لثبت حكم الكفر عليه بيقين وإنما الذي حدث أنه كان مقرا بحرمة الخمر ولكنه أشكل عليه فهم آية في كتاب الله وهي آية المائدة : { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } المائدة93 ، فظن أن الله تعالى سيعفو عنه شربه للخمر ولا يحاسبه لما قدمه من عمل صالح وهو ممن شهد بدر ، مع إقراره الكامل بأنها حرام أصلا ، وليس في فعله هذا كفر مجرد يوجب إكفار صاحبه ابتداء .

فلو قدامة زعم أن الخمر حلال لا حرمة فيه أصلا لكفر بذلك كفرا مبينا لا شائبة فيه، لأن حرمة الخمر مما لا يخفى على مثله ، ولكان أول من أكفره عمر رضي الله عنه والصحابة ، ومن تأمل القصة جيدا علم صدق ما قلت ، وانظروا إلى ما دار بينه وبين عمر ابن الخطاب ، قال عمر يا قدامة إني جالدك فقال قدامة والله لو شربت كما يقولون ما كان لك أن تجلدني يا عمر ، فقال : ولم يا قدامة؟ قال : إن الله عز وجل يقول : { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ } الآية – فقال عمر : لكنك أخطأت التأويل يا قدامة ، إذا اتقيت اجتنبت ما حرم الله ، ثم جلده. (انظر القرطبي، ج 6 –297) ...كما هو شاربها ، ربما لما قدم من بلاء في الإسلام خاصة وقد بشر النبي صلى الله عليه وسلم أهل بدر بالجنة و قدامة منهم ، فظن أن الله سيعفو عنه ويرفع عنه ذلك الإثم كما احتج بآية المائدة ، وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر في حادثة حاطب ابن أبى بلتعة : (وما

يــدريك لعــل الله اطلـــع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) – رواه البخاري – وناهــيك عمــا فعله حاطب فربما ظن قدامة انه معفو عنه لما قدمه من بلاء في الإسلام كما هو واضح من صلب احتجاجه لا أنه ظن أو قال أن الخمر حلال لا حرمة فيه، فهذا الظن أبعد ما يكون الاحــتمال ولذلك وجدنا عمر جلده ولم يستتبه و لم يكفره ولو كانت كلمة الكفر لاستتابه عمر أو قتله ردة – حاشاه ذلك – رضي الله عنهم أجمعين .

وعموما ينبغي التحرّز جيدا عند تناولنا لما وقع من حوادث بين الصحابة وذلك لأن هذه الوقائع قد تكون احتفت بها ظروف وملابسات ويكون لها جوانب عديدة , ربما علمنا بعضها وربما جهلنا بعــضها أو غابــت عــن الــراوي نفسه بعض جوانبها ونحو ذلك , خاصة أنها ليست من الذكر المحفوظ الذي تكفل الله بحفظه –كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم – وأحرى بنا ونحن نأصل قضايانا أن نؤصلها من الذكر المحفوظ بدلا من التنازع حول خلاف الصحابة والفقهاء , أو ما جد بينهم من حادثات والله تبارك وتعالى أعلم .

أعــود لأصل القضية , فالاستتابة كما قدمنا حاله خاصة غير موضوع قيام الحجة وسواء استتبنا الكافر أو لم نستتبه , فلا صلة هناك بين كون الحجة قائمة عليه أصلا و بين أمر الاستتابة , أما إن كان هؤلاء الذين كفروا بموجب حكم الله وبيانه – إن كانوا تحت سلطان غير المسلمين –, ولا يقعوا تحت حكم الله في الواقع – كما هو الحال في مجتمعات اليوم – فإن أمر الاستتابة مرفوع لا واقع له كما نعلم , فيكون تعاملنا مع هؤلاء تعاملنا مع الكافرين قطعا, ولكن لا ينقطع إلى هنا ما بينــنا وبينهم , بل هناك فرض شرعي قائم على المسلمين بالدعوة إلى الله , وبيان الدين , ودفع الــشبهات , والتذكير بأيام الله وبطشه , ورد كيد الكائدين لهذا الدين كما قال تعالى : { فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً } الفرقان52 .

وكما يقول سبحانه وتعالى : { ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِــيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } النحل125 ، وقوله سبحانه : { وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ .... } آل عمران104 ..

و حتـــى مــن علمنا أنه يعلم الحق علم اليقين ولا شبهة عنده و إنما العناد والاستكبار تظل حبال الدعــوة والإنــذار والبيان والتذكير بيننا وبينه قائمة , بل قد كان رسول الله – بأبي هو وأمي – مقيم الحجة على أهل مكة بينة قاطعة من أول دعوته , وأصبح ما بينه وبينهم إنما هو العداء في هذا الحق والتنكيل بعباد الله وإيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأهله , ومع ذلك ما كف النبي صــلى الله علــيه وسلم قط عن البيان والبلاغ والتذكير في كل حركة له و سكنة وفي كل يوم له وليلة حتى أتاه اليقين . فالذي ينبغي أن يعلمه الدعاة لهذا الدين – على وجه الخصوص – إن تم فارقــا كبيــرا بــين قيام الحجة وبين أمر الدعوة , وكذلك أمر الاستتابة وينبغي تحديد فهم هذه المعاني لخطورتها في واقع حركة المسلم في دعوته وجهاده فالحجة قائمة على الناس اليوم بما

لـــم تقم به على أحد من العالمين من قبل ومع ذلك فنحن ندعوهم , ونبين لهم , وندفع عنهم ما يقــذف فـــي نفوسهم من الشبهات , ونذكرهم بالله وأيامه وبطشه , ونعظهم بالعودة لكتاب ربهم العزيز الحميد,وحكمه وشرعه , ودينه الحق , لا نمل ذلك يوما , ولا نكف عنه لحظة ــ إن شاء الله تعالـــى ــراجين أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم : { وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُــونَ } الأعــراف181 , فجمـــاع ما قدمته هنا إن الحجة وقيامها شيء , والدعوة والبيان والإنذار شيء أخر , قال تعالى : { وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } الأعراف164 ..

خـاتمة :

وبعــد .. فقد تحولنا خلال هذا البحث في عدة قضايا هامة , قصدنا فيها الإحاطة بموضوع العذر بالجهل , كما طرح – بقدر الله – في الآونة الأخيرة من بعض الطوائف , فتكلمنا عن ربط عارض الجهل بمسائل التوحيد عموما قبل الرسالة وبعدها على حد سواء, والفارق بين الأحكام التي يتميز بها الناس في ظاهر الحال أمام حكم الله في الأرض , وبين مسألة العذاب أو العفو للمشرك الجاهل يوم القيامة ، وأن هذه قضية وتلك قضية و حققنا الكلام أيضا في هذه الأخيرة ,وأجبنا عن شبهات المخالـــف , ثم تكلمنا عن الحجة وصفتها وكيفية إقامتها , والشرط فيها ثم عرضنا لمجموعة من التصورات المطروحة لبعض المعاني الشرعية المتصلة بقضية العذر مما وقع فيها خلط ولبس , وحققنا الكلام فيها . ولقد كان عمادي في هذا البحث كما مر بك هو كتاب الله المجيد وسنة النبي صلى الله عليه وسلم الصحيحة الثابتة , لتيقني أن مثل هذه الأمور الهائلة المرتبطة بهذه القضية مـــن المحـــال أن تكون الشريعة قد تركتها لأهواء الرجال والرأي والتصور البشري , و إنما هي

مفصلة ومبينة ولا شك في الكتاب والسنة , فإن صح أننا سنتجادل في كلام الفقهاء وآرائهم وفهم منازل الكلام , فأحرى بنا أن نتجادل في فهم كلام الله و نأصل القضية منه طالما هي فيه , و أما كـلام الفقهاء والأئمة في ذلك الأمر , فقد وجدت الخير أن أفرده ببحث ملحق – إن يسر الله ذلك بفضله – نستقصي فيه كلامهم ومدى فهم المخالف لنا هنا لهذا الكلام , ونضع الكلام في مواضعه الـصحيحة فـإن أطلـق أحدهم شرط الحجة الرسالية , لا يأخذها أحد ليضعها في مواضع معينة بـصفات معينة بشروط معينة لم ترد أصلا في كلام من نقل عنه إطلاق شرط الحجة , وكذلك من تكلم عن الأمور الخلافية بين المسلمين لا نحمل كلامه على مسائل التوحيد والشرك , وان تكلم في معرض كلامه عن موضوع العذر فأفاد معنى نظرنا في كلامه الآخر الذي يبين مقصوده من الكلام الأول مـثلا , مـع تحقيق الكلام المنسوب إليهم ذاته ومناقشة استدلالات بعضهم على ضوء كلام مخالفـيهم , ورد آرائهم المختلفة إلى بيان كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم , لأنه – كما قدمنا مرارا – ليس ثم معصوم من الزلل والخطأ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم , و أما من دونه فيؤخذ من قوله ويرد ومن صفته هكذا فليس كلامه بالحجة الملزمة في دين الله...وتبين كذلك أن أصل ظهور هذه القضية بهذا الطرح قد خرج من بلاد الحجاز في الآونة الأخيرة للتنازع القـائم فـي بعض المتعلقات الحركية في الدعوة وغيرها بين أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله , وأن هذه القضية مضطربة جدا في أفهامهم جلّهم لم يقفوا بعد على فهم واضح محدد لها إلا النفر القليل , ومن تابع كتابات بعضهم فيها أو تسجيلاتهم يجد العجب العجاب .

والذي أود أن أقوله الآن وأنبه إليه ويفهمه جيدا كل قارئ لهذا البحث , أن ما كان في الكلام من شدة أحيانا في الحمل على بعض الطوائف في فهمهم للقضايا , وأحيانا التقريع والتوبيخ ما قصدت به عداء أو محادة , كيف وهم إخواني ورفاقي , وبيني وبينهم كما يعلم الكثيرون –منهم بالذات – إنما ما بيني وبينهم أكبر من مجرد الاجتماع على الدين والأخوة في الله وإن كان هذا بذاته يكفي , وإنمـا الـذي حملنـي على شدة النكير عليهم والتقريع لهم ,إنما هو الحرص عليهم أولا وعلى أصـحاب هذا الدين ثانيا , وعلى الناس كلهم بعد ذلك , وإيقاظا لهم وتنبيها على خطورة القضية التـي طـرحوها , ومدى خطئهم في تصورها والحديث عنها , وإسرافهم في تأويل الكلام ونمط الاستدلال الفاسد وتسفيه مخالفيهم بما لا يصح ولا يجوز .

وان من العظات والتذكير والنصح ما لا يستقيم إلا بالشدة لا اللين والتقريع لا التريث , و أيم الله .. ما قصدت في ذلك إلا الصدق والعدل والانتصار للدين والذب عن الشريعة , وقد جهدت في بيان وجه الحق في المسألة واستقصاء جوانبها وأطرافها .

فـالله تعالـى أسـأل أن أكون قد وفقت في بيان القضية والإحاطة بجوانبها , وأسأله سبحانه أن يعـصمني مـن الـزلل والخطأ والضلال وأن يتقبل مني هذا خالصا لوجهه الكريم وان ينفعني به

والمـــسلمين وان ينصر به الحق وأهله إنه على ما يشاء قدير والحمد لله أولا وأخرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه وتابعه صلاة دائمة إلى يوم الدين.

الفهـــرس

المراجع

القران الكريم

الجامع لأحكام القران..................................القرطبي

تفسير القران العظيم..................................ابن كثير

تفسير الطبري...ابن جرير

في ظلال القران.......................................سيد قطب

أضواء البيان..الشنقيطي

تفسير المنار..محمد رشيد رضا

تفسير البيضاوي......................................البيضاوي

لسان العرب..ابن منظور

القموس المحيط......................................الفيروز ابادي

الجامع الصحيح......................................البخاري

صحيح مسلم...مسلم ابن الحجاج

المسند..احمد ابن حنبل

الجامع الصحيح ....الترمذي

سنن ابن ماجه..ابن ماجه

المستدرك على الصحيحين..........................الحاكم

فتح الباري ....ابن حجر

تهذيب التهذيب ....ابن حجر

السلسلة الصحيحة ....الالباني

نيل الاوطار..الشوكاني

الأحكام في أصول الأحكام..........................لابن حزم

الفصل في الملل و النحل...........................لابن حزم

المحلى ....لابن حزم
الجواب المفيد في حكم جاهل التوحيد....عبد الرحمن ابن عبد الحميد
سعة رحمة رب العالمين...........................سيد غباشي
الكفر الذي يعرض صاحبه بالجهل....................أبو بطين
الاعتصام..الشاطبي
طريق الهجرتين.....................................ابن القيم
بدائع الصنائع.......................................الكساني
مجموعة الرسائل و المسائل ....ابن تيمية
تطهير الاعتقاد....................................الصنعاني
الرفع و التكميل.....................................اللكنوي
المسند...الدارمي
اساس البلاغة......................................الزمخشري
مختار الصحاح.......................................الرازي
اقتضاء الصراط المستقيم............................ابن تيمية
المفيد المستفيد..................................محمد ابن عبد الوهاب